وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أصل الغرام... نظرة

قصص



نبيه الشعار

قصص قصيرة ٢٦

أصــل الغــرام .. نظــرة

الرجــل الخيــزران

عيني لم تر قط كذاباً مثلك يا عبد اللـــه فراقيـــع. ولم أسمع بغيرك يملك ما تملك من قدرة على لفت الانتباه إليه.. ولأن أكاذيبك طراز خاص، فإن أحداً لا يستطيع أن يصطنع أمثالها.. بلى، هي صنف خاص من الابتكارات الجاذبة لاهتمام السامعين أيّاً كانوا .. كما حين قصصت، وبمزيد من الجديَّـــة، أنك دُعيت ذات مرة إلى بلد من البلدان، بعيد كأنه في أقصى الأرض، طاف وحده على بحر خضمٍّ متلاطمٍ موجُـــهُ صيفاً شتاءً ربيعاً خريفاً، وهناك كُسيْتَ وطُيِّـــبْتَ ثم أُدخلْتَ على السلطان كرسول من رسل الأباطرة.. رَجَاكَ السلطانُ أن تقدح مهاراتك وعلومك فتفعل شيئاً نحو صبايا أميرات ثلاث من بناتـــه، عجز حكماء البلد والبلدان القريبة، عن شفائهن من ضُرٍّ مسَّهن وآذاهن إلى حـــدٍّ كَفَفْنَ معه عن المأكل والمشرب والملبَس، وعن أي ابتهاج مما يليق ببنـــات السلاطين. فكنَّ لا يلبسْن إلا العُري - وغالباً العُريَ الفاضحَ والمُذلَّ - قلتَ: سمعاً وطاعةً يا سلطان الزمان .. فحين دخلت خبـــاء الحريم وأســـفرْنَ لك، زعمت بأن جنيَّـــاً واحداً آخى بين الأخوات الثلاث وتزوجهن معاً والعيـــاذ بالله - هكذا رويتَ لنا يا فراقيع - وأنك بما تعلَّمتَ من سَـــحَرَةِ الهنـــد وحكماء نيبال ومن طبابة البادية العربية.. فكَكْتَ رباطاتٍ كانت مُمْسكة بهن بحجابات و مواثيق من عالم الأراضين السُفلية، عصيَّةٍ على الأفهام وعلى الفَكاك منها، إلا من قبل عارفٍ مثلك، فأخرجْتَ ما أخرجْتَ من الأجساد الملكية .. فكان أن جازاك السلطان ثراءً واسعاً أصبته، وزعمت - فوق ذلك - أنه عرض أن يزوجك مَن تختار مِن بناته، ولكنك أبيت مكتفياً بما نلت من عطاياه - هكذا قلتَ، يا عبد الله .. - وحين ســـألناك عن ذلك الثـــراء الذي تدَّعي ؛ وأنت لم تُعرف في الأنحاء كلها إلا بما عُهِـــد فيك من فاقة ومن فضولية أشعبية .. أجبتَ بأنك أنفقته في وجوه للبرِّ في آفاق ابتدعتهـــا . قلتَ هذا . وقلت بأن الله أشقاك بعد ذلك فَطَفِقْتَ تجري جري الكلاب نحو كفاف يومك فحسب ؛ وإذا حدث أن فاض لديك ما كان عليك أن تدَّخره ليومك التالي، كنت تستعجل به إلى منعرجات المقامرة ؛ نحو رزق تُخمِّن أنك موعود به؛ فلا تحصد إلا مُـــرَّ الخيبـــة .. ثم إنك بفعل القوة المسيِّرة للناس، انعطفْتَ حتى انتهيت أفَّاقـــاً تعتصره طاحونة المعاصي، وسكِّيراً يتقرَّب بالشراب إلى حدود النسيان.

كانت براعة سردك للأكاذيب، تجعل من يصل إليه صوتك، موصولَ النظر إليك . وحين تكون في الحانـــة، ربما استبدَّ بأحدهم الإعجاب فقَـــدِمَ إليك وجالَسَكَ وشاطرَكَ شـــرابه، أو ظل في مقعده وأهدى إليـــك زجاجـــة خمـــر، أو هتف للساقي بأن حســـابك - ما شربت وما أكلت - عليـــه هو، فتكون قد ظفـــرت بمجانيـــة الليلـــة

وضمنت الليلة القادمة، وتكون - أيضاً - قد وجدت ما تقامر به . أما حين تستبد بك الخمرة، فتكون مغنِّيَ السهرة كلها بصوت تلك الناعورة الرومانية على نهر شحي . تستدعي للسامعين شجونهم بمواويل زُهيرية شرقاوية حزينة، مضفورة بأسىً يفطر القلوب، ويُغري بسعادة خفيَّة، رغم ما فيه من الضنى ومن اللوعة ؛ فكأنك الضنى نفسه، وكأن حياتك هي اللوعة كلها ..

لكنك الليلة - يا عبد الله فراقيع - تجاوزت ادعاءاتك المعتادة، فقد راهنت على أنك قادر أن تُردي جَمَلاً بحالِهِ بضربة سكين واحدة .. حبذا لو كنت قُلْتَ دجاجةً أو حَمَلاً ابن يوم . أي غرور هذا وأيَّة مغامرة، وأنت تعرف جيداً أن مُراهِنَكَ لن يسامحك بقرش واحد إذا فشلت.

لقد جَبُنْتَ عن الاقتراب من الجمل وهو في غباء وقفته، يجترُّ ما يجترَّ أويمضغ ما يمضغ، ويُعَيِّنُ في وجوه وأجساد المُتحلِّقين في الساحة.

كان الجميع ينتظر ساعة حسم الرهان، والكل مستعد لمعانقتك إذا أنجزت ما راهنت عليه ؛ والكل كان يتبادل الحديث عنك .. فمن قائل إنك مُآخٍ الجنَّ وتقدر أن تفتك بسَبع وحدك، وقائل بأنك مجرد متخرِّصٍ أجوف وستطلق ساقيك للريح بمجرد أن تلتقي عيناك بعينيْ الجمل، وقائل بأنك صنديد من الصناديد المعتبرين وأن رهانك مجرد حيلة تحتال بها ليهاب سكينَكَ مختارُ الحي ورئيسُ المخفر، فكم أوديا بك للمبيت مرات في نظارة قلُّق الحي [1] ومرات في سجن المدينة .. بلى يا عبد الله، لقد جَبُنْتَ عن مجرَّد الاقتراب من قامة الجمل وهو يحرك أحد خِفَّيه بازدراء بادٍ .. وحين عَثَرَ عاجَلْتَ إلى جرابك . سَلَلْتَ سكين القندرجية من حافة الحذاء وأولجتها في العنق المشرئب كمئذنة .. لقد خانتك معرفةُ أن الإبل لا تُشكُّ بالسكاكين في الأعناق، بل تذبح ذبحاً بأيدي القصَّابين المهرَة والأشدَّاء .. يذبحونها، نعم بسكين صغيرة، وإنما من الوريد إلى الوريد وليس بالشكِّ الخائف بسكين مهما كان حدُّها ماضياً؛ فتشخر، فتخور، فترتجف، ثم تبدأ بالاستكانة، وتهمد؛ لكأنها لم تكن ما كانت منذ لحظات ..

وحين كفَّ الطعين عن الاجترار وفَزَّ، صارت له عينان من عقيق جحيمي يغرزهما بعينيك . لم تكن النظرة استغراباً ولا عتاباً صعباً ؛ كانت حقداً سيُتبع بانتقام لا يقدر على تخمينه أحد: فربما كان ركلة خُفٍّ تعلو بك إلى جدار يهشمك أو تهبط ثَمَّ بك إلى جَلْمَد الساحة، وربما كان عضَّة تستخلص أنفك من وجهك أو نهشة في عضلات فخذك، وربما كان بُرُوْكاً فوقك تُعتَصَرُ به اعتصار ليمونة فاسدة .

كذلك، فإنك خفت، يا عبد الله، حين لَوْلَحَ الجمل بعنق طويل بينما سكينك عالقة به قريباً من المَبْلَع .. وجأر جأرةً رددت الحيطان صداها .

جريْتَ . لم تصرخ ..

كنت تعوي كذئب باغته قمر صيفي لجوج من بين الغيوم ..

أولاً جَرَيْتَ باتجاه الجموع التي تجمهرت تتشفَّى بالبعير الجاري دمه على عاتقيه نُقَطَ لَبَنٍ رائبٍ أحمر.

ثم اختلطْتَ بالجموع .. وبعْدُ تَسَرَّبتَ من بين الأكتاف وصيحات التكبير ..

تسرَّبت، ولم تُكبّــر مع المكبِّرين. كنت منشغلاً بالفرار الجبان، فَــرَاراً يُنسيك خيبتك، و يوهِّمك أنك مُلاقٍ مَلاذاً .

احترت في اختيار الاتجــاه .

مكثت تقلِّب في جيوبك عن نقود؛ وجدت نقود الرهان فحسب، تساءلت أيُّ حانٍ يستر عُري عجزك أمام جموع الحي في باحة الذبْــح .. وإذ وجدت أن النقود لا تكفي لمائدة في الحانة، اكتفيت بزجاجة خمــر اشتريتها ودسستها، كالفِعْلــة الحرام، بين أسمالك ؛ وكذبت على بائع المُكسَّرات بأنك ذاهب لاستلام أجــرٍ لك، فَرَضيَ أن يَــزِنَ لك بثمن مؤجَّــل شــيئاً من الحُمُّص المسلوق والمُحَمَّص، يكون عوناً لك على حُرقة زَلاعيمك عندما تمصُّ مَصَّةً من فم الزجاجة .

اغتبطت، ويممَّتَ شــطر البادية لا تلوي إلا على الزجاجة في جيب سترتك فــوق موضع قلبك مباشرة . وشددت عليها بساعدك .

ما كدت تبتعــد قليــــلاً عن البلــدة كي تتخيَّــر مكانــاً يــروق لــك في جبــل ســيف الدولة(٢) فتجعلــه مجلس شرابك وتَفَكُّرِكَ بما حدث، ومن ثم اصطناع أكذوبة لتبريره .. أو لنسيانه .. حتى أبصرت على بُعْــدٍ قريب مضاربَ خيام .. توجَّسْتَ أن تقترب منها، لأن البدو ينفرون من الشــراب وممن يتعاطاه، أو يقتلونه ؛ فهم موقنون بأن مَنْ رأى مُنكراً عليه ــ كي لا يأثم ــ أن يغيِّره بيــده . وطريقة التغييــر أمرٌ يقرره مَنْ رأى المُنكــر .. إلا أنك آنستَ حين وجدت المضاربَ مضاربَ قربــاط .. فدلفت مُستحضراً ابتسامتك المُزورة، ملوِّحاً بالزجاجــة.

هشَّ لك فتى ودعــاك، فجلستما تتسايران وتتساقيان .

وإذ أقبلَتْ من وراء خِبَاءٍ شفيف وممزق إلا أنه نظيف .. فتاةٌ بعمر الزنبق والريحــان وبطول رمح عربي، كأنها قُــدّت من سبيكة ذهب وورد، وقال لك مُضَيِّفُك إن اسمها نســيمة .. .. نَسَــمَ في قلب قلبك بغتةً نسيمُ البراري البعيدة . أحسست أن قلبك قد ضاع منك حقاً . لا، بل إنك – نَفْسَك - قد ضُعتَ حتى أبــد الآبدين .

وإذ دارت برأسك نسيمة والخمرة ونشوة تباهيك الكاذب المعتاد بالعنفوان .. انعطف بك الغيُّ إلى التقوى فادَّعيتَ الفقــه .. علَّلْــتَ لهما أن شُرْبَ الخمر لا عقوبة لــه، والذي ورد هو التحريمُ فحسب، دون حــدٍّ من الحدود على نحو ما جاء بخصوص محرمات أخرى من رديء الأفعال .. فصرت مدار الاهتمام وموضع إعجاب الفتاة وأخيها، مما أرجع إليك الثقة بالنفس .. فانعطفتَ تتحدث عن الجمل وقد صيَّرته ناقة .

قصصت عليهما أنك آتٍ من ذبْحِكَ ناقــةً عجز جميع القصابين عن الإمســـاك بهــا فــأنَّى لهــم إذن أن يذبحوها، وأنها فَــزَّتْ تتهدَّدُ كل المتحلِّقين حول الساحة لأن غُــرَّاً من الأغرار حَسِبَ أنه قادر عليها، فَلَكَزَهَــا بسكين في جانب من عنقها الطويل، الطويل بمقدار طول بدنها كله، وما هذا بمذبح صنف البعــــران .. فحــين آلمها جرح الغريــر .. انزوتْ بادئ ذي بدء، وتحفَّزت باتجــاه الفتى الطاعن بنظرة فيها مــن الحنــوِّ والحقــد والثورة، الشيء الكثير مما لا يمكن فهم مؤدّاه ولا مآلــه؛ ثم قاربَتْ الهيــاج القاتل ففــزَّت إليه .. وقلــت بــأن صنف البعران إذا هاجت أو أوذيت، فليس لــه من رادٍّ إلا القتــلُ الرحيم .. ثم هتفت: قلتُ للجموع ابتعــدوا .. أنا لهــا . واندفعتُ كالباشــق تماماً، وبيدي ســيخ معاش(٣) أحتفظ به تحت كُمِّي اليسار تحسُّباً للغدَّارين، ولكنه

ليس معي الآن ؛ فأنا آتٍ لكم يا النشامى، وأنا - أعــوذ بالله من قَوْلَــةِ أنا - لي من الأعادي ما فتح وما رزق .. ما علينـــا .... أعود إلى الناقة الجريح .. فقــد نزلْتُ عليها بضربة واحدة من ســيخ المعاش - اللهم عافِنَـــا - فانفصلت الرقبة الطويلة عن الجسد الكبير والصلب .. كأنها قصبة كسَــرَتْهَا ريحٌ عاتيةٌ .. تهاوت الأرجل منهــا أولاً فكأنها يا جماعة الخيــر - وقد أسلست كلها لضربة سكين المعاش - قد آنست لي، فقدَّمت لي الجسد كلــه أسلخه وأُقطِّعَهُ على هواي .. وتعلمان يا فاتنة البدو والحَضَــر، وأنتَ يا صقر الملمَّات .. تعلمـــان أن استــسلام شـــاة أو ظبيـــة أو حتى ناقة، أشـــبه تماماً باستسلام امـــرأة . والمرأة لا تستسلم إلا للجريئين القـــادرين علـــى الإمساك بها ولَيِّهَـــا، مثلما سقطتْ بسيخ المعاش على الناقة .. ولا يؤذِّي المرأة أو يشطرها إلا غرير، فيخسرها ويخسر نفسه .

كانت السماء ترسل بريـــق نجومها وقمرها إلى الخيمة التي ظلَّت مُضـــوَّأةً بضوء يطوف سبائكَ فـــضَّـــة غير معهودة ما خطرت على قلبك يا عبد الله، ولا على قلبيْ الفتى والفتـــاة، ولا على قلوب أبناء عشيرتهما كلهم .

تهلَّل وجه الفتى القرباطي . جالت عيناه - السوداوان كثقبين لبِئْــرَيْنِ تبقَّيا بعد النَّـــزْح في صحراء منسـيَّة - جالتا في المكان . ثم امتدتا خارجَهُ، فالتقتـــا بالأفق نفسه .. صار وجهه المتطاول على نحو محبَّـــب كوجـــه حصان، طَبَقَـــاً من الأرجوان بفعل ما يسمع منك يا عبد الله، وبفعل خمرتك القويـــة قوَّة ســـبائك مـــن النحـــاس الحامي تندلق في الأفواه الظمآى .. وما زاد عن أن قال: يسلم فمك يا ابن الأجاويد، فالحقُّ ما قلت يا الأَخُو .

أما نسيمة فأبدت كما لو أنها غير معنيَّة بما قلت يا عبد الله، أو قُل مستاءة بعض الشيء . بل الشيء كلِّــه.

المؤكَّــد، بل الواضح يا فراقيع أن تشابيهك تلك، قصدت بها نسيمة . ونسيمة أبعد ما تكون عن الاستسلام، فلا سيفٌ قادر على مسِّهَا، ولا سيخٌ آدميٌّ قادر على شطرها .. هي كتلة واحدة قُــدَّت من سبيكة وردٍ وصـــوَّانٍ وذهبٍ معاً.

إن نسيمة ريم تكسَّرت ســـيقانه مـــن أهوال المطاردات، وما تزال عصيَّة وبعيدة . وقد آب مندحراً كل من ارتـــاد خيمتها وسبح في ملكوت صوتها النـــدَّاب، الأحَنِّ، الماطرِ شوقاً ودَلَعَاً وغنجاً وصبابةً ؛ أو اندمج جَسُوْرَاً في مَيْسِ رقصها المجنون كغصنٍ مَالَ، تـــأوَّهَ، تَفَطَّرَ، طَأطأ، وما انكسر ...

الكل يا عبد الله، جُـــنَّ بها ثم آبَ خفيضاً، كقلم رصاصٍ حادٍّ رأسُـــهُ، لكنـــه في المِبْـــراة.

إن نســـيمة مبراةٌ يا عبد الله . .

بلى .. وإن نسيمة كربـــاج يكوي الرجال . جهنم هي ؛ إنما من زمهرير يقدِّد العشاق ويلويهم لَيَّ الانـــدحار المـــُذِلِّ.

* * *

كانت لديك نوايا وخُبْـــثُ قيعـــان مجتمعات المدن ، فتكاد تمد كفاً إلى فخذ نسيمة فيما أخوها يقلب إلى فمـــه الفظ ما تخلَّف في الزجاجة .. وكادت الخِسَّـــة أن تنضح منك لولا أن الليل طـــال ، بل كاد أن ينتهـــي . صـــار

لزاماً أن تغادر يا عبد الله .. فها قد جَهْجَــهَ ضوء الصباح ، وأخذ الليل معه ما سَتَرَ من الخبايــا ، والأســرار ، والعواطف الصادقة والكاذبة ، والتباهيات المجوَّفــة .. وقالت نسيمة: قد نَعِسْت . فقمت ثــوراً ثقــيلاً ، بعيــراً أَسَــنَّ هَــدَّهُ الجرب وأضناه اللهاث..

وهــا أنت الآن في المقهى وحدك ، تغرز عينيك الواهيتين في النسوان المارَّات ، وتتذكَّر نسيمة . وتكــذب بأن نسيمة قد أُغرمت بك وأن أخاهــا صار خاتماً في أصغر أصابعك .. تكذب فتحسَّ خيباتك كلهــا . وتبــصق على نفسك .. لكنك لم ترعوِ، بل جعلت تحمــد الخلاَّق العظيم أنك لاقيْتَ نسيمة القرباطية ، و تؤمِّلُ الزواج بهــا ..

وحين سَعَلْتَ سعالك المعهود الشديد، وبصقت ، لعنتَ الزمان لأن آمالك تلبــَّدت بتجهُّم مُنتقى من القنــوط . فإن شكّاً كبيراً في أن ترضى بك النسيمة بعلاً أوْحَدَ ، أحاط بأحلامك .. أحْسَسْتَ كأنَّ قــوس قُــزحٍ حــزين آذَن بالرحيل إلى غيومه الخاصة الملوَّنَــة .. فجعلت لا تحلم بأكثر من مساء آخر تلاقيك بنداوته نســيمة ، وترقص لك أو ترقص أنت لها بكلِّ هواك ، وبكل بِّرد ليالي وحدتك وانكساراتك وتهتهــات سُكْرك ، وبكل مواويلك .. ما ألَّفْتَ وما حفظت . وستبني لك نسيمة بيتاً في قلب صدرها الثري .. .. لكنَّك لم تعلم بأنَّ القرباط يبنون بيوتهم في أحلام لهم ، لا يعرفها أحد سواهم . يبنونها لا ليسعدوك ولا ليسعدوا غيرك..بل ليُسعدوا أنفسهم فحسب ، وبينمــا يأكلهم اليومُ نفسُــه تراهم يأكلون الغد ..ثم إنَّهم يرقصون بقلوبهم القوية كالصوَّان، ويعزفون البُــزُقَ(٤) لِتَــرِقَّ قلوب الصــوَّان..

تقول يا عبد الله، إنَّهم يحتاجون بصبوصــة فرح ؟

أيَّة بصبوصة وهم الذين يَزْرِقــون الفرح زَرْقــاً في الوجوه الكابيــة كي تبتسم، وفي الأفئدة النازفة هوىً كي يتذكَّر حاملوها زوجاتهم أو حبيباتهم أو أمهاتهم ، فيعودوا إليهنَّ..

بلى، فتبصَّر يا عبد الله. تبصَّر لأن الشبق سيأكلك ولن تظفر بنسيمة النسائم.

تبصَّــر فيما يعتور ذاتك، وفي كآبة ما أنت مُقبلٌ عليه.. فأن تتزوجها وأن تبني بها، فتَلِــدَ لــك الــصبيان ليصبحوا عزوةً وســوراً وســنداً، هو الحلم الكامل. لا بأس أن تحلم. الحلم ليس حراماً إلا عنــد أبنــاء الليــل الأســود.. أما الحلم نسيمة.. فهي في كل الخواطر وعند كل منــام.. إلا أنها شرنقة من حرير كتــيم لا يُوسِّــع فراشه سوى لمن يريد هو.

لك أن تعرف هذا يا عبد الله فَتَكُفَّ .. لكنك ما كففت . فأمس وأنت تعود من الجبل اخترعت لنفــسك قلبــاً جديداً. صيَّرتَــهُ نشوةَ المباغتة واللهفة الطرية نحو نسيمة، وأرسلته إلى الفلاة يجلب لك الطرائــــد. ظننتــــه وَعْــلاً ثوراً.. لا.. إن قلبك فاحش وأخــرق أيضاً، وهو قبل كل ذلك نَمْلَــةٌ.. ومن ثَمَّ، فليس لك بعدُ إلا أن تمدَّ لسانك كالسلوقي، وتعــدو..

هذا ما فعلت يا عبد الله.

عدوت إلى باب قنِّسرين(٥) تتنسم هواء الانتصارات التليدة البائدة..

كان السُكْر قد خلخل عظامك كلها، ولأن نسيمة لم تُنْجِــدْك بعذوبة خيال يحتويك.. فقد حلمتَ بها....

وفي الطريق من التلَّـــة السودا[٦] انكفأت إلى المقاهي السود في بحسيتا ...[٧] آخـــذاً بنواصـــي رجولتـــك المندحرة، كما يوم أخذت امرأةٌ حضرية باهرة بناصيتك وأجلستْكَ قرب النار .غدوت نفسكَ النـــارَ يا عبـــد الله مؤمِّلاً أن تُلايلَكَ ليلتَـــكَ تلك أو في ليلـــة قادمـــة، فرقصتَ لها. وكان هنالك رقٌّ وكمانٌ حزينان، حزينان حتـــى النهاية. .لكنك كنت تضحك.فلم تضمُّكَ المرأة. اشـــمأزَّتْ منك. .عند ذلك حَزِنْت. وحين جالت عينـــاك وســـط دمعهما، فَغَرْتَ فاكَ كجحش محشور في هاجرة صيفية بأحماله الثقيلة وهَرَشْت صـــدرك ...لأنك ظننت المـــرأة قرباطية سلسة، فيما هي قعرٌ من الدوَّارات والإسفنج الرملي الأزغب. .بل هي قـــاع بعيـــد تسكنه العفاريت.

وكعادة الشَـــوَايا، عدت مطوياً كالألف المقصورة بدون نقاط أو استقامة، تجـــرِّرُ عِنتِّـــك بـــراريَ مـــن الاحتراق.. ولا تملك أكثر من التذكّر..

فها أنت اليوم أعزل، خائبٌ كزهرة صبار في شتاء جبـــل. بل ها أنت غروب ذاهب وحـــده إلى بحر بعيـــد يُغالب الحُمرة، لكن الاصفرار يحتويه..

وحين يهجم الليل من دورق بنفسج كابٍ على أعناق البيوت والشراشف الملونة، وتنتشر المـــساحيق علـــى خدود البنات القرباطيات، وبنات الأرياف، وبنات الشـــوايا، وبنات المدن المُتَـــذَكَّرةِ والمـــدنِ المنـــسـيَّة.. وتنزاح أردية وقماطات عن الأجساد الدافئة والدافقة بعطاءات غير محددة وغير محدودة. .تكون - يا عبد الله - على أرصفة اللوعة والتَّـــوْق تنفـــخ في راحتيك الباردتين ليسري فيهما الدم.. ووحدك تشتاق وتحلم برفَّـــة عين من نسيمة، أو بمسٍّ حييٍّ من أصبعك لخصرها، بل تتوهَّم أن الأماني غدت ملـــك يمينك، وأن البَّريَّـــة لم تعـــد موحشة، ولا ملاذاً للضباع والفارين من السلطات الحكومية ــ العادلة أو الجائرة ــ.. عند ذلك لن يعود القمر في سماء عشقك رغيفاً طازجاً كما في العديد من أماسي جوعك السرمدي. بل يستحيل كابوساً يقلي كيانـــك كلـــه.. يوقفك عند المشارف الممضَّة لخيام القربـــاط.. فترى بين فُرجـــات الغيوم الداهمة والأفق الكالح، سحنات ٍهلاميةً تندلـــق عليك، تتَداخلُ فيكَ خَلِيَّـــةً خَلِيَّـــةً. . عندها تدرك القهر كله في آونة واحدة، ولا يكون لك إلا أن تهـــرب نحو الحانة الخاوية من الحنـــوِّ، والضنينـــة بالإرواء.. أو إلى مقهى يَلِمُّـــكَ وحيداً منكسراً كي تتحدَّث. لا تشرب ولا تقامر ولا تغني.. تنتظر نسيمة المقيمة في أحزانك صبح مساء همَّـــاً دائماً، وهي تتبدَّى مرتديةً بيلسان الربى، وفي يدها قبضـــة من شقائق النعمان جمعتها من أطراف مضارب القرباط، البعيدة بُعْـــدَ نسيمة نفسِها عنك..

وها أنت يا عبد الله فراقيع، يا أيها السادر في الغيِّ وفي الانكفاء، ها أنت بين مقهى وحانـــة ومقهـــى، ثـــم حانة.

الحواشي

---

(١) القُلُّق / أصل الكلمة بالتركية بمعنى اليد السوداء وبمعنى المخفر الليلي.
(٢) جبل غرب حلب، طيب الهواء كانٍ لسيف الدولة الحمداني قصر فيه .
(٣) سكين ثقيلة بطول ذراع ملوية قليلاً كهلال، يستعملها القصابون، لم تعد مستعملة الآن مع انتشار طريقة عصر اللحم بالمكائن .
(٤) آلة وترية كالعود وتمتاز عنه بعنقها الطويل وبصوتها الأكثر نعومة وحِدِّية.
(٥) أحد الأبواب في سور حلب المتهدم أغلبه حالياً، وكان باتجاه إمارة قنسرين.
(٧) التلة السودا. تلة حي فقير جنوب حلب فيه مغاور ومسارب بعيدة تحت الأرض.
(٨) شارع كان يعتبر موئل المعاصي والموبقات إلا أنه تغير الآن. قيل أن تسميته هكذا أتت من: باح (أي انتشر) صيتها.

أتذكر أنه كانت على الرصيف فتـــاة..

وكان هناك شارع يعج بالسيارات والمتسكعين وباعة أوراق اليانصيب والــشحاذين والــشحاذات: أطفـــالاً ونساءً ورجالاً؛ وعلى ضفتيه متاجر للملابس النسائية ودور للسينما وملاهٍ ليليـــة.

وأتذكر أن الفتاة الواقفة على الرصيف قد أولت لواجهات الدكاكين ظهراً مشدوداً في استقامة باهرة توحي بأنه يحمل، وباقتدار، ثقل ثديين قويين على كفل شاسع وحوض قادر على حمل دســـتة من الأجنـــة في آن معاً[1]، ولم يكن يبين من الجسد الممشوق المليء إلا خلفيـــة كاحلين مُطبلجـــين[2] تأبَّيَـــا على الجلباب المطـــرّز ياقته والمحلاَّة بخرز يلمع كأنه بَصٌّ الجمر مما يستدعي البَحْلَقَة حقاً[3]. وليس النظر فقط - فَتَجْمَرُ عروق الرجال، وربما يتعرَّقون.

وكنت إذَّاك قد فرغت للتوِّ من لحْس إبهامي ورأس السبابة مما علق بهما من قطعة السكر التي يأتي بها مـــع فنجان قهوتي، نادل المقهى، مقهى الرصيف الذي اعتدت ارتياده يومياً منذ حضرت إلى المدينة واستلمت عملي في ديوان الأوراق بوزارة السلامة قبل عشرين سنة . فالنادل لا يكف عن وضع قطعة سكر كاملة في الطبق مما يضطرني لأن أقسمها قسمين، فأضع قسماً في الفنجان وأُرجِعُ القسم الثاني إلى الطبق الرطب فيذوب بعضٌ منـــه ويدبق بعض، لأقع في الخشية من نقطة ماء سكرية تسقط من قعر الفنجان الخارجي على قميصي أو بنطالي مما يعني الحاجة إلى غسل وكيٍّ يُفضيان إلى التأخر عن بدء دوام اليوم التالي .. ولذلك كنت أرفع الفنجان وأضـــعه على الطـــاولة وقتاً ما، حتى يجف قعره الخارجي وتجف الدائرة اللزجة تحته .. وتكون النتيجة: قلة الاســـتمتاع بالقهوة ساخنة. أما نظري فيمتد إلى الرصيف المقابل . إلى العابرين ودور السينما المفتوحة أبوابُها في هذا الوقت من بعد الظهر، والملاهي الليلية المغلقة أبوابُها في هذا الوقت من بعد الظهر؛ حيث تحتـــشد واجهاتهـــا بالعامـــة والسابلة :نساءً ورجالاً لا أعمارَ محددةً لهم، يغرزون عيونهم في اللوحات الدعائية الجامدة كأنهم يرغبون بـــضمٍّ الأجساد شبه العارية المرسومة عليها .

وكان هناك راديو قابع كالهم الدائم على رف فوق طاولة الحاج أبو معروف صاحب المقهى .

وأبو معروف ما كان يستمع إلا إلى محطة إذاعة واحدة كانت قد هربت إلا بلادها غـــداة نكـــسة حزيـــران فلاحقهـــا مُرغِماً آذان الزبائن على تلقي ما تبثـــُّهُ وبأعلى وتيرة ممكنة، حتى إنها كانت تطغى على جميــــع الأصـــوات بمـــا فيهـــا تصايح الفائزين والخاسرين في لعبة الورق، أولئك المقامرين الفقراء الذين يغتصبون أثمان لقيمـــات أبنـــائهم وزوجـــاتهم، وأحياناً أمهاتهم، ويتبادلون تلقُّفَهَا في أشداقٍ وقحة.

بلى .. أتذكَّر كل ذلك، حتى لكأنه يحدث الآن.

وكنت وقلة قليلة من الزبائن قد اصطنعنا لأنفسنا مقهى الرصيف هذا، ابتعاداً وتحاشياً لوجه أبو معـــروف،

المتجهم باستمرار وترتسم عليه بوادر تحفّز، من النمط الفظّ، لشجار ما . وقد نشأت بيننا ــ نحــن الزبــائن ــــ أواصر معرفة لا ترقى إلى مرتبة الصداقة إلا أنها كافية لنتبادل الأسئلة عن أوضاعنا وصحة كل منا وماذا طُبخ في البيوت، و نقف على أسرار الأُسر وأسماء الأبناء والبنات، وأحياناً أسماء زوجات مَن لا يرى في إسم المرأة عــورة. وكنا نتناقش ونتبادل الإعجاب أو عدم الإعجاب بمارّةٍ محجبة أو غير محجبة ..

وأبو معروف كانت له عيون أخرى ــ غير عينيه الفظتين الجامدتين كعيون القنافذ، اللتين ينظر بهما إلينا نحن جلساء مقهى الرصيف ليحصينا ويحصي مدد جلوسنا وعدد ما شربنا من شاي أو قهوة أو غير ذلك ــ عيون تتطاول إلى الرصيف المقابل فيرى ما نرى وما لا نرى أيضاً .. وما كنت أدري أنني في اللحظة نفسها التي اســترعت اهتمامي خلالها فسحة لحم آخر الساق ومبتدئ قدم الفتاة المطبلج؛ البادية طرية ويانعة كأنها تتحدر من تل صغير من الحنان والفلٍّ؛ وأخذت عيناي تعريانها برخاوة وبدغدغةٍ حييــّة .. في تلك اللحظة عينها، كان أبو معروف قد ثقبني وثقب المجاورين لي والمارة جميعاً، وصولاً إلى مسامٍّ جسد الفتاة بعيونه تلك . كان هذا واضحاً .. حيث صار وجهه زهرة بطيخٍ دَبِقَــة تكاد تلتهم ثمرتها في ظهيرة صيفيــة . بل إنه قد فرك كفيه ببعضهما ثم ما لبث أن اندفع خارجاً ليقف قريباً من الفتاة، بل خلفها تماماً، فحجبها عني وعن كل جلساء الرصيف، ثم غابت وغاب أبو معروف فــي الزحام .

في اليوم التالي افتُقِــدَ أبو معروف . وحين سألنا النادل عنه قال بأنه مشغول اليوم بالمحكمة الشرعية، ثــم أطلق ضحكة ملغوزة، وذهب . وحين عاد بعد ساعتين ليسألنا ماذا نشرب من جديد، سألناه ثانية عن أبو معروف فقهقه كحصان وقال: عُقبال عندكم، إنه مشغول بتطليق إحدى زوجاته الأربعة ليتمكن من الزواج بامرأة قيل إنه تعرَّف عليها هنا أمام المقهى، فعُقبال عندكم جميعاً؛ والآن ماذا يشرب الشباب ؟

* * *

واليوم، هأنَذا وبعد عشرين عاماً من التعاطي مع أوراق ديوان الأوراق بوزارة الســلامة .. هأنَذا كما فــي كل يوم، على الرصيف بمقهى الحاج أبو معروف، وأرى الآن على الرصيف المقابل فتاة.

كل ما في الحياة تغيَّــر إلا الرصيف والمقهى وأنــا .

هناك ما تغير فجأة .. وهناك ما تغير باتئــاد..

بالأمس القريب كنت في الديوان؛ أكتب أوراقاً، وأقرأ أوراقاً، وأصنِّف أوراقاً، وأمــزِّق أوراقــاً لكننــي لا أرميها فلم يكن مسموحاً لي ولا لغيري من الموظفين رميُ أية ورقة في سلة مهملات، فالسِلال - كما أُفهمت منــذ اليوم الأول لعملي - هي لجمع المتراكم من الأوراق بانتظار التصنيف؛ ممزقــة كانت أو غير ممزقــة..

أما المستغرب، والذي صعب عليَّ تفسيره فهو أن تبلغ القحَّــةُ برؤسائي أن يرموا بي أنــا نفــسي خــارج الديوان مفصولاً من العمل لسبب قيل إنهم يجهلونه، وحين تمنَّعت ثوانيَ عن تسلُّم قرار فصلي هــددوني بــأنهم سينتفون شاربي لو تأخرت لحظة عن استلامه ومغادرة الغرفة والطابق والعمارة كلها، بل إن أحــد متوســطي المكانة الوظيفية الذي دأب على أكل نصف إفطاري اليومي فصرت كمن تناول إفطاره عشر سنوات ولم يتناوله عشراً أُخر .. لم يتردد بتهديدي بأنه سيفصل رأسي عن جسدي إذا لم أغادر في التــوِّ واللحظة. ولم يكن لــي إلا

الانصياع الصاغر. حتى إن جليسي على مقهى الرصيف استغرب كل الاستغراب كيف ترمـــي وزارة الـــسلامة موظفاً مثلي إلى سلة المقهى ولا تُجيز رمي ورقة من أوراقها. وقال بأن هذه والله - كما أقـــسم - لعلامـــة مـــن علامات آخر الزمان، إلا أنني قلت لـــه لا تبتئس يا صاحبي فإنه يخلـــق ما لا تعلمون وعسى أن تكرهوا شـــيئاً وهو خير لكم. وصدقاً فقد حمدت الله حمـــداً كثيراً لأن أياً من المحاولات التي بذلتها للزواج ببنت حلال أو بنت حرام لم تنجح، فماذا كنت فاعلاً لو أن لي زوجة وأولاداً، بنات أو بنين، وحالي على ما آلَ وإلْتُ إليـــه.. !

أجل .. إن كل شيء قد تغير في هذا الزمان الذي صرنا إليه .

فالفتاة الواقفة على الرصيف، تطايرت منها خصلة شعر صهباء كم تمنيت لو أنها حطت على طاولتي، لكنها حطت على أحد كتفيها، فبحلقتُ - ليس بكاحل مُطبلج كما حملقت قبل عشرين عاماً - بل بمنتصف جسد بالجانبين منه خصر مُستدقٌ وبلون القمح، يُبرز فقرات من الظهر كأنها هواجس مستدعاة إلى حضرة ملك سومري أرعـــن عاد تواً من رحلة صيد أو من معمعة حرب .. أما الخصلة التي حطَّت بنزق على الكتف المنبسط فـــي اســـتمالة حيِّيـــة، فقد خُيِّل إلي بأنها تومئ أن تعالـــوا يا رجال فضمخوها أو لوِّثوهـــا فقد عاث بها رهـــطٌ ظَلُـــومٌ مـــن الكبت والاشتياق.. وللحقيقة والأمانة، فإن الفتاة، جميعَهـــا، كانت شمساً لا تعرف الغروب أبـــداً. شمـــساً مـــن ذهـــب.

كنت مشدوهاً . وكان الرجال: الشيوخ والشباب ومن معهم من السيدات أو الآنسات يظهرون فـــي الطـــرف المقابل من الرصيف من بين ساقيْ الفتـــاة - وقد أفرجت ما بينهما بعد طول وقوف - وأيضاً كان شرطي مرور هو الآخر يظهر بقيافته الأنيقة..

هممت بالوقوف للسير باتجاه المشهد كله لولا أن الساقي - وقد استعاض بهذا الاسم عن اسم النادل - سألني أي مشروب ثالث أريد. أجبته ثلاثة شاي بلون الليل، واندفعت أريد حجب الفتاة عن العيون، فربما عوضني بها الرب عن ديوان الأوراق؛ وهو الذي لا ينسى عبيده وعباده، فغـــداً - أو بعد غـــــد علـــى الأكثـــر - أقـــبض تعويض عمري من الوزارة، ولست أُمانع في إزهاقه كله عند قدميها زوجة أو رفيقة أو صديقـــة.

اندفعت باتجاه الفتاة.

كانت يد الشرطي نفسه هي السفلى عند شباك سيارة فارهة أعاقت حركة السير وحركتي وأتاحت للساقي أن يتبعني وهو ينادي: هات الشَّكْلة يا محترم(٤)، بينما الفتاة تهمُّ بركوب السيارة.

الرجل في السيارة لم يكن يُشبهني .. كان يشبه أبو معروف..

لعلَّـــه أبو معروف نفسه.

* * *

الحواشي

(١) الدستة، في التركية والفارسية، حزمة أو قبضة أو حفنة، وقد استعملت للدلالة على الكلمة الإيطالية دوزينا وهي الرزمة التي تضم 12 قطعة متماثلة.

(٢) مُطَبْلَج: نحت من كلمة (طبل) تطلق على كل ما هو سمين أو مُقبَّب.

(٣) ورد في موسوعة الأسدي أنه لم يجد أصلاً لكلمة بحلق بمعنى النظر إلى الشيء أو الشخص دون إطباق الجفون وهي متداولة كثيراً في لهجة أهل حلب. لعلها تحريف للكلمة (حملق)..

(٤) الشَكْلِه: ثمن المشاريب في المقاهي.

عتمة لسان

(١)

نظرا للشمس .

أحسا بأنها أشرقت لهما وحدهما. لا لتشي بهما، بل لتضيء الأمكنة فتراهما ويراهما كل الناس الأنقياء، بينما هما يريان المخاليق تسعى جمهرة من السادرين لا تدري ما قد جرى وكان بين الاثنين، في الليل الكتيم الكتوم والشفاف كالنبيذ الفرنسي في آن معاً.

(٢)

شمعة واحدة كَفَتْ الغرفة الواسعة إضاءة.

وحين رمحت سوسن كمهر لترقص، اكتفت بالضوء اللهب المنبعث من المدفأة .

ماج جسدها المرمر المصهور.

تأوَّهت زوايا سجاد الغرفة.

المدفأة استعجلت توهَّجها كأن مسَّاً أصابها أو حمىً جهنميَّة اعتورتها، والشاب ملأ كأسين آخريين لامعين صافيين صفاء الحب نفسه..

عبَّ، وعبَّت، ووالت رقصها ..

وعندما امتدَّت كفُّهُ إلى الخصر ماس الخصر، بل ذاب كَعِرْقٍ من الياسمين على ثغر زنبقة طيِّعة، ثم تأوَّه؛ وبَعْدُ .. أنَّ، وحَنَّ حنين الشباب الشغوف؛ فصارت الغرفة وهج عناقيد دانية قطوفاً وابتهاجاً .. لم تَعُدْ غرفة . فقد أغمض كل ما فيها ورقَّ، استدقَّ، وأفسح للحبيبين فسحات من الشفافية والانعتاق .

دخلا معاً طقس ابتهال خلوي عَبَرَا به العالم المُعاش إلى عالمٍ حلمٍ فضفاضٍ وحنونٍ، لا تُسمع فيه إلا

كلمات ندية ورطبة تتسلسل: من الشفتين، إلى عموم الجسدين العَطِشين، إلى الصدرين، فالقلبين.

(٣)

أغراهما طقس الابتهال. وكانت كؤوس النبيذ قد أسْرَتْ بهما وأغرتهما هي الأخرى بعالم جنَّـــة، لينغمسا في لُجج المُتَــع المحرمة في أعراف الأزمنة الماضية والمبتغاة في أعراف الأزمنة الحاضرة؛ لكن أيَّاً منهما لــم يُؤذِ صاحبه أو يوردْهُ مَوْرِدَ تهلكة من أي نوع كان، على الأخص الفتى، بَيْنَما سوسن طيِّعةٌ رضيَّـــــةُ العطـــاء، وتودُّ لو يكتمل عشقها بأن يُثقب الكون.

(٤)

عندما مال القمر مَيَلانَ عشيق، فاسترجع بدريتـــه وعاد هلالاً مفسحاً للشروق أُفُقَـــهُ.. تقلَّب أحد الحبيبين على الآخر فصحا.

كانت الشمس قد أشرقت. أحسَّا بأنها لهما وحدهما أشرقت، لكي تدفِّئ الــصادقين والحجـــــارة الحنـــون والينابيع والشجر اللين وجميع الطَــرَاوات وكلمات الغزل .

بدا النهار أليفـــاً ومخيفـــاً في آن معاً .

صَعُبَ على الشاب الموقفُ المنتظرُ من أهل سوسن أكثر مما صعب عليها. .

غمرها بصدره وشـــدَّ .

أحسَّت بأنها تلوذ بالصدر الأحن. تمتزج بنياط القلب، بالقلب .. تصير القلـــب. .

صمَّمَتْ أن تواجـــه الكلَّ بحبهـــا. وصمم أن يُواجـــه وأن يحميها.

(٥)

بعض من الجارات وجدْنَ في مبيت سوسن ليلتها خارج البيت مناسبة مبتغاة للتقوّلات:

- نسيَتْ أنها بنت ناس شرفاء. بنت أمٍّ أَفْنَتْ عمرها لكي تدخل ابنتها الجامعة وتتخرَّج .. وعنـــدما تنـــسى البنت، يسهل عليها أن تسلم نفسها للحرام..

- لا يا ست عطـــاف، لا تقولي هذا الكلام . إن الله قد أمر بالستر .. ولا أفظع من رمـــي المُحـــصنات ، والبنات بالـــذات ، مذكورٌ هذا في القرآن الكريم .. حسبنا الله ونعم الوكيل .

أضافت الجارة عطاف :

- يعلم الله، كنت متأكِّدة من أن الذي صار سيصير، فأنا أعرفها .. لا تستحي من شيء ولا من أحـــد.. يوم الإثنين الذي راح صعدتُ إلى سطح العمارة لأنشر الغسيل، وجدتها جالسة في ظل الجدار تطوي أعلى تنورتهـــا لتصبح أقصر بل فوق الركبة بشبر بل بشبرين كما أظن، وما إن رأتني حتى عاجلت فهبطت الدرج دون أن تقول لي حتى صباح الخير .

قالت ثالثة:

- يوم رجعتْ قرب منتصف الليل، وهبطتْ من السيارة .. تساءلتُ بيني وبين نفسي كيف تسمح لها الست

أم أحمد بهذا، ثم إن فتاة بعمرها وحسنها وجمالها، حرام أن تكون هكذا .. تصوروا ماذا قالت لأمها تلك الليلـــة .. قالت بأن نهاية السنة اقتربت وعملها يقتضي هذا التأخير في العودة، وتصوروا أن أم أحمـــد صدّقَت .

- وهل كانت السيارة من سيارات الشركة ؟

- لا طبعاً، ولو كانت لقُلتُ لعل وعسى . لكنها سيارة خاصة يقودها رجل أربعيني تقريباً وكانت سوســـن جالسة على المقعد بجانبه، وعند توقف السيارة سمعت تضاحكهما معاً، وحين فتحَتْ البـــاب لتهبط تلكـــأَتْ قليلاً قبل أن تظهر إحدى ساقيها عارية، والعياذ بالله، حتى كـــاد سروالها أن يبين هو الآخر .. أجارنا الله من فسق هذا الزمان وستر عليها وعلى جميع البنات والنسوان ؛ أنت الكريم يا رب، أنت السَّتّار .

- هذا كله من علامات الساعة والعياذ بالله .

- وهل حدث يا ستات الحارة أن مر يوم جمعة، أعني يوم عطلـــة الشركة، ولم نجدها علـــى البلكـــــون تبصبص على الشباب المارين .. ولا أقول تغمز لهم بعينها كما حدثتني جارتنا عفاف لأنني لم أشاهدها بنفسي تفعل هذا، فالكذب حرام يا ستات، أليس كذلك؟

- بل لا تذهبي بعيداً فأنا بأم عيني، هذه العين التي سيأكلها الدود، شاهدتها مئات المرات علـــى البلكـــون بالقميص الداخلي؛ والملعونة عندها قمصان داخلية شفافة تسلب العقول حتى عقول النساء فما بالكنَّ بالرجال .. يا حسرتي علينا وعلى قمصاننا نحن .. والله لولا أن زوجي قد أَسَـــنَّ لخفت عليه منها .

- مثل هذه القمصان غالية الثمن، فمن أين لها ؟

قالت عطاف:

- وهل تظنين بأنها تشتريها؟ كلها هدايا من الرجال الذين تسهر معهم، وتساهرهم مثل الليلـــة الفائتـــة ..

وبعد هنيهة صمت أضافت :

- سترك يا رب .. ارحمنا مما صرنا إليه .. لكن بعض الظن وأحياناً أغلبـــه، إثمٌ يا نسوان الحارة . أُقسم أن حارتنا كانت حتى اليوم أشرف الحارات .

سُمِعَتْ خطـــوات أم أحمد مقبلة عل الجمع الحريمي بصينية فناجين القهوة .. فسكتْنَ، لكأن على رؤوسهن الطير .

قالت أم أحمد:

- يا ويلي على هذه الحال . قلنا بنت وحيدة ويتيمة، فلا بأس بأن تكون لها حريتها .. والله أعطيتها الثقة كلها، حتى إن أحمـــد، وهو رجل، لم ينل مني ما نالت من الرعاية والاستجابة لكل طلباتها .

- والله يا أم أحمد على سلامتك .. يا عيني عليك وعلى تربيتك، أنت لست على غلط أو خطـــأ، وسوســـن ست البنات، بس الخوف أن تكون تعرضت لحادث أثناء عودتها من الشغل، يا روحي عليها، ذابحةٌ نفسَها بالدوام من أجلك ومن أجل أحمد، ردَّهُ الله من عسكريته بالسلامة .

تلاحقت الدموع سخية من عيني أم أحمد وقالت :

- اليوم إجازة أحمد؛ سلمه الله؛ فماذا أقول له عن سوسن. يا ويلي إذا عاد قبل أن ترجع مقصوفة الرقبة، أو إذا علم بما قد حصل، يا ويلكِ يا أم أحمد من الفضائح ومن فــورة الشباب .

- إن شاء الله سيأتينا الخبر الطيب عنها ونحن هنا، بإذن الله . وعندما يأتي أحمد بالســلامة لن يلحــظ أي أمر غير طبيعي .

- الخوف أن جارةً من الثرثارات الظنونات ظن السوء تُعلِمُــهُ بأمرها؛ أعَدَمْني الله إياها .. فمن عادتــه السلام على كل من لاقاه من أهل الحارة في طريق عودته .

- افتحي فمك بالخير . الغائب حجته معه .. سوسن فهيمة وعاقلــة فلا يمكن أن ترتكب الغلــط .. لعلهــا باتت ليلتها عند إحدى الصويحبات، فالليلة كانت شديدة البرودة والتكاسي قليلة في الليل عموماً، فما بالكن بليلــة كليلة أمس .

- صحيح .. بعدين تلفونك معطل يا ست أم أحمد .. فلعلها اتصلت لتخبرك وما تمكنت .

قالت عطــاف :

- ربما، ولكن كانت تستطيع الاتصال ببيتنا .. عموماً مثل ما قيل الغائب حجته معه .. إن شاء الله يكون غيابها خيراً وأن لا يعلم أحمد بأي شيء .

(٦)

كل الذي حصــل هو أن سوسن قد أحبَّت .

لم تعد صغيرة كي لا تعرف ما هو الحب أو كيف يكون . كما لم تعد صغيرة لتعرف أن الخاطب الذي جاء قبل عام، قد خطبها لهوىً؛ ولذلك عندما أعربت عن رفضها له إنما انطلقت من قناعتها بأن الحب وحــده هــو الضمان، وأنه وحده يجب أن يشكل المقدمة الأولى لأي زواج .. فهو عندها: المهر، معجَّله ومؤخَّره أيضاً.

والخاطب الثاني يكبرها سنين وعقوداً ، وهي لم تره ولم تعرفــه، فهل تقبله فقط لأنه محشوٌّ نقوداً وســتنعم ــ حسبما قيل ــ بحياة تتمناها كل فتاة في حلب .. من قــال إن سوسن تغريها الحياة التي يقولون : تتمناها كــل فتاة في حلب . إن حلب وفتيات حلب جميعاً، شيء .. وسوسن شيء آخر ؛ شيء مختلف تماماً وكليَّــة. ! .

إن لسوسن رأياً ومشاعر .

وإن لهــا حلماً يجب أن يتحقق .

(٧)

تعرضت سوسن لضربات وصفعات كثيرة من أيادٍ لا وجوه لأصحابها، بينما الست عطاف تدعي الإشــفاق عليها فتمسك بها بشدة وتغرز أظافرها بالجسد الذي لم تسنح له ثانيــةٌ واحدةٌ يُفلت بها أو يقاوم .. كانت تُبعــدها وتدنيها ولا تطلب تخفيف الضرب، بل ألا يكون على الوجه والصدر .

وإذ هدأت هنيهةً ثائرة أم أحمد وأجهدها تتالي صفعاتها وركلاتها لسوسن، وجعلت تلهث، وتنتفض لمــرأى ما توضَّع على عنق سوسن ولوحظ لحظة دخولها البيت، فقد نفى أي احتمال لغيابها سوى أنها قضت الليل كلَّــه

في حضنٍ ما، مَنْ وأين، لا يهم، المهم أن سوسن نامت على سرير غير سريرها والتحفت برجل أيَّـــاً كان ..

اقتربت إحدى الجارات من أم أحمد وهمست في أذنها . فقالت أم أحمد :

- نعم، ينبغي لدايـــة أن تفحص جسد البنت .

قالت عطاف :

- نعم . هذا مهمٌّ . إنما يجب أن تكون الداية بعيدة عن الحـــارة.

عاجلت أخرى :

- أنا أعرف داية كبيرة في السن، يعني خبيرة كل الخبرة، فهي تعرف ما إذا كان الباب مغلقاً أم لا، وتعرف ما إذا كان قد جرى فعلٌ ما، أي فعل .

(٨)

وهي تهبط سرير الفحص النسوي وبتحديق متحـــدٍّ لايوصف قالت سوسن:

- أنا لا أُفــرِّط، والمحبون لا يؤذون !

سَمَت الفتاة فوق آلام الجسد المجهد، اتكأت على زنـــدها . أحست آدمية منسحقة تعتور روحها .

لم ترَ العابرين صبايا وشيوخاً وشباباً وعجائز وأطفالاً فقد تناوبت عينيها : العمارات والدموع، والشوارع والدموع، والدكاكين والدموع، والسيارات والإشارات الضوئية والدموع، .. بينما السيارة المُتخلخلة تخب بالجارة وبها باتجاه البيت .

(٩)

ودَّت لو أن الحبيب يطفـــر لها من عمارة أو شارع أو دكان، تماماً كما كان قد التمع بحياتهـــا .. لرَفَعَتْـــــهُ ورفعها عن الضوضاء والتقوُّلات والألسنة السوداء التي أوصلتها إلى الداية، ولكانا مضيا إلى صوامع يُتَعـــاطى فيها الغرام غيرُ الآبه، محروسيْن بسياج من ألحان وزنابق ، وبجنود من أنوار .

(١٠)

سُمعت في الحارة أصوات طلقات رصاص . ربما عشرة وربما ثلاثون، هكذا قيل؛ بل من قائل ســـبعون .. وهذه مبالغـــة، فخزان الطلقات مليئاً كله، ما فيه إلا ثلاثون.

شوهد أحمـــد يضحك يضحك، وسلاحه بين يديه حريصاً عليه كأنه سوسن عندما يُلاقيها عائـــداً بإجـــازة . وكان قد شوهد يخرج من بيت عطاف .

وشوهدت سوسن منكبـــة على وجههـــا بينما قدمها اليسرى عالقة، ما تزال داخل سيارة التاكسي .

انطلق السائق كرصاصة. لم يأبه للباب المفتوح ولا للقدم العالقة.

سوسن لم تعد سوسن ..

غدت أي شيء إلا سوسن .. غدت كومة من اللحم المُثقَّب برصاصٍ عَجُوْلٍ ليس لـــه قلب، وليـــست لـــه

عيون، ولو كانت له لكان خجل من سوسن، وكان كفَّ عن العدو إليها واختراقها .

وحين أفرغت ما لديها من الـــــدم على إسفلت الحـــارة وفتحت عينين مليئتين بالحنان وبالدموع، نظـــرت إليها عِطاف وافترَّت شفتاها .. بينما أم أحمد تحتضن أحمد وهي حاسرةٌ مشقَّقةُ الثياب والروح .

* * *

الرصاصة الثالثة

نسيم الليل الصيفي الباهت أدى في بله وعدم اكتراث مهمته في نقل الصوت المفاجئ الذي أرعد الهـــدوء المعتاد كأنه القدر نفسه بين جنبي الشارع فتوضَّع بعضه على واجهات الدكاكين ولافتاتها فيما بعضه الآخـــر اخترق نوافذ البيوت الطابقية في الشارع الحديث وصولاً إلى الساكنين فرداً فرداً، فأفزعهم ودفعهم على نحو انفعالي إلى الشرفات يستطلعون الذي حدث .

في واحد من البيوت المقابلة لبيت أبوسليم كان هناك سرير يتأوَّه لكنه تمطى محدثاً جلبة مـــسموعة حـــين تزحزحت المرأة وانسحبت من تحت الرجل وعَدَتْ بثوبها الشفيف باتجاه الشرفة المطلة على هدوء الـــشارع الذي اصطخب، دون أن تعير صوت زوجها يدعوها للعودة (تعالي. عودي. أنت هكذا تؤذينني . يجـــب أن أُكمل) .. لكنها جاوبته : (انتظر لحظة، عائدة إليك، انتظر، لا أنا طرت ولا طارت الدنيا) وأضـــافت : (يـــا ويلي إذا أصاب أبو سليم مكروه). على الشرفة تمطَّت المرأة داخل الرطوبة المنعشة ثم مدّت نصفها الأعلـــى وقالت : بل هو أزيز رصاصتين من بندقية روسية، أنا لا أخطئ هذا الصوت وأحفظه منذ أيام الفتـــوة فـــي المدرسة الثانوية يوم انطلقت في الباحة رصاصة فأصابت عزيزة الحسودة في زندها . قالت ذلك رداً علـــى واحد من الجيران المتجمهرين كلٌ على شرفة بيته حين قال : هذا صوت طلقات مسدس، كذلك أجابه رجـــلان على الرصيف مطمئنين على ما قال.

سليم الذي تسمَّر هنيهة قريباً من مدخل العمارة وتوقف تفكيره في شطط أبيه ورغبته في الزواج مجـــدداً رغم سنيِّه السبعين، هذا التفكير الملازم له كلما عزم على الزيارة الأسبوعية. قال لنفسه : سبحان الله، ما من مرة جئت فيها لزيارته إلا وكانت هناك مشكلة من نوع ما . ثم أتبع تسمُّره على المدخل بـــالقول : بـــل هـــذا أزيز رصاصات مسدس .

أحد الساكنين قال : جاء الصوت من هنا، من هذا الاتجاه، وأشار إلى مؤخرة الشارع .

آخر قال : بل من أوله يا جار .

المرأة قالت : لابد أن الرصاص أتى من ناحيتنا من فوق بيتنا تماماً، فلو لم يكن من هنا ما كنت سمعت وقع تحطم زجاج ولما كان للأزيز ذلك الصوت المفزع والمدوي . أجابها زوجها وقد جاورها في وقفتها: لا بد أن الرصاصتين انطلقتا من تحت وعلى نحو مائل إلى الأسفل . قالت : بل من فوق .

الشارع نفسه استمر غير مكترث وكذلك السيارات العابرة والنسيم الأبله الذي اشتد اللغط عليه فاقترب من الاهتياج وأرغم المرأة وزوجها على الانكفاء إلى الداخل لا مباليين وكأن الأمر كله يتصل بالمكان الذي انطلقت منه الرصاصتان لا بما قد تكونان قد أحدثتا . المرأة مرت بخاطرها قولة حمد لله فإن أبو سليم ليس معنياً بما حدث ولو أنه كان معنياً بصورة ما فإن مكافأتي من أجل العروسة التي وجدتها له ما تزال . وتمتمت : لكنك يا أبو سليم لن تعمِّر معها فأنت سبعيني وهي ثلاثينية فقط. وأطلقت آهة حرَّى.. فكم تمنَّت لو أنها لم تكن متزوجة لكانت اختارت نفسها له .

(ألف مرة قلت له غادر هذا الحي لم يعد لنا فيه شيء أو أحد .. جميع الساكنين جاءوا من الريف القريب ومن الريف البعيد .. نعم كان للحي طعمه ونكهته قبل أن تتفجر دُوْرُهُ ذات الفسحات السماوية وتستحيل إلى هذه العمارت التي شقَّته نصفين وتوضَّعت على كل جانب من جانبيه، ثم إنك أخذت ثمن الدار وأبيت أن تعطيني وأخواتي بعض ذلك المال الذي بقي بعد شرائك هذه الشقة، كي يعيننا لحياة أسعد أو أرحب، ثم إنك تصرُّ على العيش هنا وحيداً مهموماً لا يعرفك في الشارع أحد ولا يقرع بابك إلاَّي وتحلم بابنة حلال ترضى بك زوجة، وماذا لو وجدت، تكون قد جعلت لي شريكاً بالإرث ومحكوماً عليه باليتم المسبق .. وكنت تقول يا أبي : هنا ولدت وعشت وهنا سأموت .. نعم، إن الوطن غالٍ، لكن هذا الذي تسميه وطناً لم يعد كذلك، لقد تغيَّر، ألا ترى أنك وحدك من أصحاب الدور القديمة هو من بقي هنا.. حقاً إن لله في خلقه شؤوناً).

لم يكفَّ سليم عن هذا النمط من محاورة الذات إلا حين بلغ مدخل العمارة . ومنذ وطأ الدرجة الأولى من السلم أحس كأن الدرجات العشرين التالية توشك أن تنقض عليه وأن تدفعه دفعاً إلى العودة من حيث أتى، حتى إن نفسه راودته باحتمال أن تلقي الشرطة القبض عليه وتتهمه بإطلاق الرصاص بقصد إخافة أبيه إن لم يكن بقصد قتله، بخاصة وأن المسدس الذي يحمله غير مرخص وبخاصة أيضاً إذا كان عيار الرصاصتين اللتين أطلقتا من عيار مسدسه نفسه .. إلا أنه أبعد هذه الوساوس واستمر صعوداً إلى شقة والده في الدور الأول .

استعصى العثور على المفتاح على أصابعه التي راحت تبحث بلهفة وعجلة داخل جيوبه . لكنه هشَّ قليلاً إذ وجده .

أزَّ الباب وسُمع له صرير لم يعهده سالم من قبل، ثم انفتح. لم يسمع كما هي العادة صوت أبيه يقول : من هناك ؟ بل سمع صوتاً آخر، ظن لوهلة أن قطة أبيه لا بد منحشرة في ركن ما ولذلك فهي لا تموء بل

تئن بصوت أجشٍّ كالذبيحة التي لم يُحسَن ذبحها، وإذ اقترب من الغرفة الوسطى وجد الصوت يــزداد علــوّاً واتضاحاً فعاجل إلى الغرفة الأمامية ليجد أباه يكاد يسبح نصفه الأسفل، تحت بطنه قليلاً، في بركة من الدم .

(ألم نقل لك يا أبي دعك من هذا الشارع ومن الحي كله فقد أضحى حي أوباش ومجرمين ومنحــرفين ومنحرفات ..)

تماسك الأب قليلاً .. رفع رأسه قليلاً .. نظر في عيني سليم قليلاً وتكلم قليلاً : كنت أجر كرسياً إلى الشرفة حين لسعتني رصاصة لم أدرِ من أين أتت .. أبوس يدك أسعفني يا ولدي .

عاجل سليم ففتح باب الشرفة ووقف يصرخ : يا أولاد الحلال الرصاص دخل إلى بيتنا، أبــي مــصاب تعالوا ساعدوني. وكلمح بالبصر اكتظت الشقة بالجيران وأُخرج أبو سليم إلى المشفى الوطني دون أن ينتبــه أحد إلى أنه قد فقد الوعي . بعد قرابة الساعتين في غرفة العمليات الجراحية خرجــت ممرضــتان تتغنجــان وتبتسمان وفي إثرهما طبيب شاب سأل : من منكم قريب للمصاب ؟ تقدم سليم الجمع المحتشد: ما الوضــع يا دكتور ؟ قال الطبيب فيما عيناه لا تريان سليم بل تلاحقان الممرضتين: الحمد لله، لقد أفلحنــا فــي إعــادة وصل الأمعاء التي تقطَّعت، ولكن عضلة مهمة عند الرجال تبعثرت وتهشمت حتى لم يعد ممكناً إصــلاحها البتة .. عموماً هي ليست مهمة الآن مادام لديه ذرية أبناء وبنات كما علمت .

تنهدت امرأة من نساء الحي وقالت :ياحرام ؛ كان قد أوصاني أن أبحث له عن عروس .

أما سليم فقد اغتبط لأن أباه سيكف عن السعي إلى زواج بعد الآن وإذا ما تزوج فلن ينجب . وأقــسم أن يلاحق قضية والده بحثاً عن الفاعل مادامت الأجهزة الأمنية قد سجلتها ضد مجهول واكتفــت بحجــز فــارغ الطلقتين في حرز حريز ..

* * *

أبّهة الليلك الحزين

لمع في خاطرها أنه مع الصبح يعود، فإن سفره قد طــال. وإذا كان السفر لم يُضنِــه فإنه أضناها هي. بل أذلَّ قلبها وأدماه .

الوسادة تساءلت عن الشيء الذي انكسر بينهما.. عن اللزوجة الهلامية التي فصلت الشجرة عن اللحاء الوفيِّ والحنون. فإن ليالي كثيرة قد مرت على المرأة حومَّت خلالها في أفق نفسها أحزانٌ لها شكل القطوف العــصيَّة؛ وأحياناً أحزانٌ ذات مناقير حادة أين منها مناقير النوارس الفاتكة؛ ولم يهــلَّ أحــدٌ يُخَلِّص الصدر الطفــل مــن

أشواك المناقير الحادةِ كجلود القنافذ. بل إن القنافذ نفسها بدأت تغزو القلب؛ فيما القلب يخفق له، وحده.

فجأة أحست لذة خاصة ما مثلها لذة في الكون. .لذة لها نكهة الأفكار الجميلة فرأت كل شيء يتمايس.. أقاحيَ وبنفسجاً وثريَّات. فقد خبط جدرانها الجنين المستتر، بضربة قدم طرية وصغيرة هزَّت بطنها وخصرها كلَّـــــه. فابتسمت. إن أحداً لايقدر أن يقلِّد حبلى تتبسم إذا تقلَّب الجنين الساكن فيها. .تلك بسمة ما مثلها افترار شفتين قـــطُّ ولا تجوال بؤبؤ عين لمشهد جميل أو عند لقاء حبيب..

بلى، مع الصباح يعود أبوك من سفره حيث لابـــدَّ لكل مسافر من إيـــاب.

وقالت لنفسها حين ستطلع الشمس كما يطلع الزهوُ، يصبح بإمكاني أن أسترجعـــه. فالشمس قـــادرة علـــى تجفيف كل لزوجات الدنيا، وليس فقط هذه اللزوجة الباهتة بيني وبينـــه..

هكـــذا فكَّـــــرت.

كانت لها ثقـــةُ الأيائل في الجبال الشتوية بقدرة الرب على أن يهبهـــا النَبْتَ الوفير، وثقـــةُ الغزالـــةِ بـــأن ثمَّـــة غديراً ينتظِـــر ورودَها. .بل فوق ذلك، كان لديها إيمـــان الناســـك غيـــر المحـــدود، بالغفـــــران غيـــر المحدود..

العارفون قالوا بأن زواجهما كان أبيض يوم ابتدأ؛ وأن ذلك اليوم الأبيض وحـــده كان يكفي عاماً كاملاً، عمقاً وارتفاعاً، طولاً وعرضـــا، لو أرادا - بل لو أراد هو قبلها - وأن يستمرَّ هكذا أبيض العمر كلَّه. لكن الحلم قال: إن زوجات الشعراء مُغضبات على الدوام. وكانت قد قالت له: إن حبي لك أرضي ككل الحب، فلماذا لا تـــراه وترى حبـــاً خاصاً بك في بروج من الشِّعر والَجَيشَان الأزعـــر..

في ذلك اليوم بُهِتَ الحوار فسكت. وكل منهما لاذ بصمته..

أغضى الشاعر الزوج كفيف القلب والأحاسيس، مصمماً على الابتعـــاد عنها.

أما هي فسكتت مصممة على الاحتفاظ به أرضيَّ الحب.

وكان أن صَفَقَ الشاعر الباب وراءه ؛ فصفَّق الهجران وتهلَّـــل، فعاجلت إلى موقد الغاز تضع عليه قِـــدْرَ الطبيـــخ:

كانت المسافة بينهما قد تباعدت حقاً.

ولأن المرارة كانت حاضرةً الحـــوارَ. .فقد تولَّت الإجابة بأن حبهما قد مات منذ زمن بعيد، ولم يبـــقَ إلا أن تُطْبِقَ الكآبة عليه، ولأن الكآبة كانت بارَّة فما توانت، نزلت عليهما نزول المقتـــدر.. فغادر بوحٌ جريحٌ صـــدورَ العصافيرِ النَيِّـــرة. وهوَّم طير الفراق بجناحيـــه فحجب ضوء النهار؛ وعند المساء وفي الليل، كان يحجب حتى أضواء المصابيح فما فكَّرت الفتاة إلا بأنه قد سافر لأمـــر ما عاجل وطارئ ولا بد لكل مســـافر من إياب. أمـــا هو فظل ساهراً الليل كلَّه. وفي بعض الثواني التي أغفى بها لم يكن يغفو على حلم من أيِّ نوع كان. وهي حـــين أغفت لم تكن تعلم أنها إنما أغفت على حلم صبياني لن يلبث أن يذوب ذوبان السَرَابَاتِ على شـــــطوط الربـــع

الخالي:

أقبل صبحٌ ودودٌ كطفل، ما لبث أن استحال صارماً كجلمود حين وجدت أباها يستعجلها جمع حاجياتها. .

لم تَرَ في وجهه المتجهم، ولا في وجه القفل الذي تجهَّم حين ولَجَه مفتاحها للمرة الأخيرة، ولا فـــي وجـــوه المارة والسابلة. .إلا لزوجة هـــلاميَّة من نوع مغاير. .فهاهي مُرجَّعةٌ طالـــقاً كأنها لم تُحِبَّ، ولم تمُت حبـــاً، ولم تتزوج من أحبَّـــت.

يقال : إنها ظلت أزماناً طويلة تبحث له عن عـــذر.

ويقال : إنها عثرت أخيراً على جواب. .فقد كانت تحبُّـــه الحب التملُّكي الجم، أما هو فكان قد اكتفـــى ولاذ بالشِّعر:

ويقال: إنها مُـــذَّاكَ توقفت عند الجانب الآخر للوقت العصيب وأخذت تبكي بصمت.

ويقال : إن نَفَسَـــها تقطَّع فكفَّت، وإن فراشةً أقبلت عليها، استندت بتؤدة على كتفها المتهدِّل، ثم علـــى ذروة بطنها حيث الجنين يتنعم في ظلمته وحده، لاهياً عمَّا بين أمه وأبيـــه، وإنها كـــذلك بكـــت. ثـــم كفكفـــت الفتـــاة والفراشة، كل منهما، دمع الأخرى:

ويقال : إنهما قالتـــا معاً بأن ما حصل هو المسافة بين الممكن والنزوع.

ويقال :إن المرأة تساءلت عما إذا كان انتهاء حين الدَّوْخَـــةِ والخبـــْطِ والتخبـــطِ في جدران بطنها سيختصر تلك المسافة:.

غامت عينا الفراشة، وعامتا بعيني الفتاة وكادتا أن تتحدا بهما لولا أن أصيل الوقت النهاري وليل المخاض قد أزفا، فرفرفت جَزِعةً وصعدت، لا يُدْرى إلى أين؛ ربما لاستدعاء قابلة.

وإذ صار الجنين إنساناً، أقبـــل، لكن المســـافة ظلت مسافة وجعلت تَتَّسِع..

* * *

قمر الفردوس

تهالكت المرأة كأصيص فخَّاري مكسور. .ككرسي سقط من شُرفة نزوة لأن قمر الفردوس خبـــا، وانـــزوى تاركاً في رحابة الأفق خيط عتمة يشي بليل طويل وعصافير تزقزق بنداءاتٌ لا نِـــدَّ لها فـــي الكتـــب ولا فـــي الأحاديث. فالأحاديث ـــ المعتادة وغير المعتـــادة أيضاً ـــ لا تخرج عن تناول الأعمار والأفكـــار والدســـائس

والوساوس والأغاني العاطفيـــة وادعاءات الساسة والاستبداد بالمال العام من قبل ذوي المناصب الرفيعة التـــي تكاد تتقطَّع لفرط رفعتها فلذلك كان للزقزقات الطِفلة وقعٌ خاص بها لدى المرأة و في آذان الفقراء المستكينة لكل من رغب في عركها أوشدِّها كلما عنَّ لـــه أن يعـــرك أو أن يشدَّ أو حتى أن يجتثَّ. أما الذين فقـــدوا قلـــوبهم: قُطَّاعَ الطرق والأرحام، والذين لايستمعون القول ولا يتبعون حتـــى أضـــعفه، ورجـــال الأعمـــال الخُلَّبيّـــينَ والسماسرةَ، .. فأولئك لا يسمعونها. وإذا حدث أن شَـــذَّت زقزقةٌ واحدةٌ فمرَّت بجـــوار آذانهم، تأفَّفُـــوا ورفعوا أصواتهم، فتزداد حـــرارةُ حواراتهم ولا يكاد يفهم أحـــدٌ على أحدٍ، ثم يخرجون وكلٌّ راض بما اتفـــق عليـــه أو توافـــق. .صفقةً تجاريـــةً كانت أو مُفاهمـــةً على التخلص من خصم أو مُوَاعَـــــدَةً مـــع ابنـــــة زميـــــل أو امرأتـــه..

نعم، حين التـــمَّ شمل العصافير بعد إجهاد النهار، وأغضى مَنْ أغضى، من نساء كـــسيرات ومـــن رجـــال كسيرين. .أنصتَتْ الصبيـــة لكل ما ســـمعت..

توددت للقمر البعيد فاقترب.

احتضنت ظلمة البلد وظلمـــة القلوب، وارتقت تلاوين صوتها، حتى إذا اســـتقام لها طيِّعاً ورخيَّاً كالندى.. ابتهجتْ وابتهجت الحساسين المُترفـــة في أقفاصها. أما الطيور النهارية الغافية على أحلام غير معروفـــة، فقـــد اســـتبد بها الظلام وحَـــوَّل قلوبها إلى وساوس مســـاء، فارتخت كل خلية فيها حتى ظُنَّ بأنها ميتة. لـــذلك لـــم يكترث بها أحد، فنجت من الأمواس والنار، واحتفظت بريشها .

وحين طاوع الصوتُ الصبيَّة.. استخرجت مواويلها الحبيسة في صدر نجواها وغنَّت بادئة بالمناداة على الحبيب . ثم هتفت لليل.

وحين أُجيب نداؤهـــا.. فوجئت فسكتت.

لا يُعرف على التحديد ما أحسَت عندما قال الليـــل: آهِ يا وجع القلوب، مَنْ يناديني ؟ ربمـــا ظنتـــه رجـــلاً فخجلت ثُم خافت .

هذا ما حصل.

فما كادت تفرغ من قولها يا عيني يا ليـــل، حتى عاجلها الليـــل فقال: نعم. .مَنْ ينادي ؟ فصار لزاماً علـــى الصبيَّـــة أن تقول: أنـــا؛ لكنها ما لبثت أن التزمت الصمت لكثرة ما وُطِئَـــتْ روحُهَـــا بالممنوع؛ ثمَّ اشـــرأبَّتْ وائتلقت ..

ضوَّأت عيناها العسليتان.

تماوج شـــعر رأســـها.

غدا وجهها وجهَ يمامة حيِيَّـــة على غصن كُمَّثْرى.

تراخت منها الشفة السفلى، ثم انشَـــدَّت ْ .

أضـــاء جبينَهَـــا ضوءٌ أســـودُ.

ضـــاق خصرها ونَحُــلَ.

صار لها كِفــلُ زرافــة، صقيلٌ كوجوه الســاسة الحليقة .

نام الشــعر بإبطيها، واضمحلّ .

فغنَّــت :

يا عيني يا ليل .

ومَرَّةً أخرى ســأل الليــل عمَّنْ يناديــه. .وإذا كانت الصبيَّــة قد استحت تلك الليلة أو خجلت، فإنها هــذه المرة أجابت: أنا أيها الليل مَن نَادَاكَ ويُناديك. فازْدَدِ ادلهمَاماً، فكلما ازْدَدْتَ ازْدِدْتُ رؤيــةً لــك.. شــغفاً بــك.. ذوباناً فيــك..

لم يكن في بال الصبيَّــة أنها ستُكلِّم لألاءَ الليــل في أيِّ زمن. .ولذا تَمَنَّتْ لوكــان هجــم عليهــا كالرجــل العَتِــيِّ، كالفرات. ولأنه لم يفعل، انتبــذت مكاناً عَليــاً من دون الخلــق ولم تحفل أن الظلام كان قد أظلم، فظَلَمَ الكائناتِ: البشرَ، والدوابَّ، والهــوامَ، وألبسةَ النساء الداخلية والخارجية، والحِجاباتِ، والضرَاعَاتِ، والاشتهاءاتِ، وصَبْرَ النسوان على عَنَــتِ الرجال وعِنَّتهم، وانصبابهم عليهن منكفئين من الملاهــي الليليــــة مخمــورين أو مُتَقَيِّئين، ثم غشيانهم لَهُنَّ صاغرات.

بلى لقد احتــوى ظلام الليل وظلمُــهُ كل شيء. .إلاَّها. .فروحها عصية وصابرة. وجسدُهَا الشَبُّوطُ عصيٌ على الاحتواء وعلى الاستلقاء ليُؤتى كما تؤتى الدواب.

قالت لليــل:

أقبِــلْ..

إلمسني لكي تراني.

وتفجَّرت كالبركان .

اختلج صدرها. اشرأبَّ في ميدانه حُقَّــان من لؤلؤ وعسل.

كان الأوار مستعراً والمداخل كلها مُشرعةٌ.. والرضى يستعجل الآتي إليــه.. فَبُهِتَ الليل ثم خرَّ صَعِقَــاً.

لم يكن لـــه إذَّاك إلا أن يَدْلَهِمَّ في إغماءة طويلة من الحُنُوِّ المَشُوق للحظة التَّوْق .

وكــان أن غــادرت سواحلُ الصبيَّــة مواضعها، وكذلك فعلت سَــهُوْبُها. .ومنذ زمن بعيد. لذلك أبعَــدَت الليل عنها ثم بكت. سُمع الليل هو الآخر يبكي كأنه نهار خائف ومفضوح.

* * *

(دام الهنا) وحيدة والدتها ودلوعة الوالد، خاصة وأن ما بينهـــا وبينه من الشبه يفوق كثيراً ما بينـــه وبـــين أولاده التسعة الآخرين من الزوجتين الأولى والثانيـــة، الذين كان يفاخـــر بتدينهم كل آن؛ وبـــأنهم مـــا كـــانوا ليكونوا كذلك لولا العصـــا التي خرجت من الجنـــة.

ولطالما عبثت دام الهنـــا بلحيته الكثّة المُحنّاة وهي في حضنه يطعمها وحدها وقبلَـــهُ من دجاجـــة مـــشوية يحضرها كل مساء لدى أوبته من دكانه في سوق النجارين؛ بعد أن يكون قد فرغ من صلاة العشاء، ثم يقضم من صـــدر وفخذيْ الدجاجة كأنه سبع ناعس، وما يتبقى من الدجاجة فللأم تمصمص اللحم العصي الذي ظل عالقـــاً بالعظم، مكتفية به؛ وكان يُسَرُّ لذلك أيما سرور ويمتدح إقلالها من الطعام.. لم يكن يدري أن أم دام الهنـــــا قـــد أَتْرَعَتْ جوفَها بأطايب الطعام المُشتهى في البيت الذي زارته ما بين الظهيرة والعصر وأُتْرِعَـــت كـــلام تـــشبُّب وهوى وهي تتقلب على فراش تُغدق فيه على مسامٍّ جسدها، من الفَـــرْق للقـــدم، أحلى ما تشتهيه وتفتقده امرأة.

إن دام الهنا كانت تسمع كل كلام التشبب والهوى لكنها لاتراه. فباب الحجرة موصد عليها وهي تلهو بلُعب اشتريت لها في الطريق إلى هذا البيت، وتتنعم بالسكاكر والحلوى الكثيرة؛ وتستمتع بمشاهدة التلفزيون. .ولطالما تَدَاخلَ الصوت الذي ينبعث من أفلام الكارتون مع صوتَي الأمَّ وصاحب البيت، مصحوبة بآهات غيـــر مألوفـــة لديها، آهات فيها حنان وفيها تحبُّب؛ وربما زاولها صراخ أيضاً. .إنما هو صراخ من طراز خاص لم تألفـــه دام الهنـــا. فهو لا يشبه البتةَ صراخ أبيها عندما يغضب ثم يثور. ولكم تمنَّت أن تعـــرف كيـــف يمكـــن أن يكـــون للشخص الواحد أكثر من صوت في آن معاً، فالحجرة المجاورة ما فيها إلا رجل واحد وامرأة واحدة. لم تكن تعلم أن مصدر الآهات مشترك بين فيلم فيديو وبين الأُمَّ والصديق. .أما وقد شبَّت دام الهنا فقد أخذت تدرك مـــا كـــان يحصل وأخذت تتلـــذذ به، حتى إن تلك الأصوات أوصلتها بغريزية ذاتية ودون تعليم من أحد، إلـــى ممارســـة العادة الخاصة، كما عرفت فيها طريقها إلى كراهية ممتزجة بحقد من نوع ما وبحبٍّ وبعطف تجاه أمها، فـــي آن معاً.. كانت ترى فيها مظلومةً وظالمةً في الوقت عينـــه. وفي مرات كانت تجدها جديرة حقاً بالشفقة أكثر ممـــا هي جديرة بالتعنيف .

وحين وقفت دام الهنا على باب الفرن لتشتري حاجة الأسرة كان الزحام على أشده، وما كـــان لهـــا إلا أن تصطف بالدور الذي تنظِّمه أعمدة من حديد تصنع منه مسارب بحيث لا يتخطى أحد دور أحد، أما الشاب المولجَّ بتنظيم التقدم الصامت باتجاه كوة تسليم الخبز فيبدي الكثير من الحرص على أن يبقى الرتل الجائع أشبه ما يكون بأبقار مصطفة في زريبة تتطاول إلى آنية البرسيم فلا يظهر منها إلا رؤوس .

كذلك تماماً كان المشهد عند الفرن. فالكتلة الآدمية كتلة واحدة إنما برؤوس متعـــددة.

وسط هذا الحشد الصامت صارت دام الهنا كتلة لحم طري ودافئ، إنما - ولقصر قامتهـــا - هـــي دون رأس كالآخرين .وكان عجوز خلفها، قد استطاب الطراوة والدفء من كرتين متصلتين فالتحم بهما ثـــم مـــا لبـــث أن

أنهض الثوب، فيما آخرٌ أمام البنت أسرف بأصابع من أوتاد في التلهي بـــ. .

هنيهة مديدة وتبسمت دام الهنـــا. لم يرها أحد تتبسم وهي لم ترَ أحداً يبتسم كذلك. لكن شيئاً كاللزوجة أحست به دافئاً على أصابعها وهي تعاون العجوز غير المرئي في إسبال الثوب. طفت على مخيلتها بغتةً سكين أبيها يوم عيد الأضحى حين ذبح الكبش ثم مسح الدم عن السكين بجلد الكبش. مسحت ما علق بكفها ببنطال العجوز.

وعندما تقدم الرتل بطيئاً بطيئاً تزحزح تداخُل الناس قليلاً فبانت دام الهنا من الفرجة التي صارت. ومـــا إن أبصرها شاب النظام حتى عاجل إليها فشَحَطَها من بين الحشد وجعلها في المقدمة.. رفعت إليه عينين من عـــسل مصفًّى وابتهاج، وكأنه أحس بأنْ قد صــــارت لها رائحة غير الرائحة الاعتيادية التي للأجساد. .ففهم، وفهمـــت دام الهنـــا اعتناءه بها؛ فَخَرَّ في عمقها توق للتكرار بحيث يصبح في إمكانها أن ترى من يلتحم بكرتيها أو يعبث، لهذا سُرَّت حين أسرَّ لها أنه لاحاجة بها في المرة القادمة للوقوف في الرتل العابق بروائح الأجساد الجائعة للخبز ولغير الخبز، فقط عليها أن تأتي مباشرة إليه ليتولى تسليمها الكمية التي تشاء. .سألته: ألوجهِ الله ؟، لم يُـــــزِد أن قـــال: مقابل بسمة لوجه الله ..! تبسمت دام الهنا ثانية فبانت أسنانها الرخام الأبيض الذي ما مثله لؤلؤ مكنـــون، وتلاعب اللسان الزهري على الشفتين الغضتين فأزهرتا .. ثم قالت بدون صوت: أنت جميل بالبــــذَّة الرســـمية وربما بدونهـــا. افترَّت في الشاب ابتسامات واشتهاءات غضيضة. ولو أنه سمع إطراءها لكـــان أفتــــرَّ لهـــا كلُّـــه..

في اليوم البعد التالي، كفاها شاب النظـــام مؤونة الازدحام ثم دعاها إلى الداخل.

استراحت أكياس الطحين كلها وابتهج منها ما لامس الجسد الطري وما لم يلامس.

ضمها فابتسمت.

عصرها فابتسمت .

وحين غطَّها تأودت أعطافها فسحة من الدقائق قبل أن تبتسم مجدداً ثم تهمد؛ ويهمد كل شــــيء، إلا ضـــجيج الرتل مقتحماً وصاخباً قبل أن يعود إليه الشاب.

تأرجحت دام الهنا بخبزها واحتشاد مسرتها دون أن تترنح. لكن الأب كان قد رأى ابنته خارج زحام الحـــشد وهي تتلفت وراءً باتجاه الشاب الذي كان هو الآخر يدغدغ جسدها المتأرجح بنظرات امتنان ما مثلها امتنان قط. صعب على أبيها الأمر. إذ كيف لدلوعته الأحب أن تُخاطِبَ تلفتَها ونظراتِهَا دغدغةٌ ونظراتٌ من الغير .لم يكن له أن يرجع إلى الشاب، إلا أنه عكف على خلفية عنق دام الهنـــا يضغط ويدفعها عَجِلاً بالمسار نحو البيت.

دام الهنـــا لم تستطع فهم أن الزمان قد صار غير الزمان، وأنها لم تعد صغيرة أخواتها، كما لم تعد وحدها، دون أخوتها، الوحيدة التي لم يحدث أن ضُربت، لا من الأم ولا من الأب، على الرغم من أن تراث الأسرة كـــان أن تمتد يد الأب لتتناول الجميع بمن فيهم الأم نفسها.ولذلك فإنها رفعت بصرها وعلقته باليد المرتفعـــة وبـــالكف المتأهبة لصفعة لا يُعرف مداها، في الوقت نفسه كان قلبها هو الآخر قد ارتفع وتعلق بالكف نفسها. وحين هوت الكف على الخد الأحبِّ سقط النظر وزاغ ؛ أما القلب فهوى إلى قاع عميق .

* * *

الوقت خريف، بل هو الشتاء الخريفي الذي يُفتَقد فيه جمال الأصيل، لأن ليلَـــه يهجم بغتة و " عبد الباسط" ما كاد ينهي الدورة الأولى حول سور القلعة ممنياً النفس بلقاء " عَيُّوشْ" في الغد..حتى اندلق الليل أزرق شفيفاً ثم كتيماً، على البيوت البادية أسفل منحدر القلعة، كأنْ من دواة حبر عظيمة تقبع في اللامكان، وأخذ يلف القلعـــة لفـــاً محكماً كي تغيب عن الأنظار وتبيت ليلتها وحـــدها من دون سيف الدولة أو بيـــبرس.

ومثلما تبدأ القلعة نوبة الحراسة الليلية المعتادة لحلب، فيما حلب تبدأ نوبة حراستها للقلعة، حيث لا يُعـــرَف أيهما يحرس الآخر.. ، فكذلك هو، سيبدأ نوبة حراسته الخاصة فيبيت وحده في قلعة روحه مـــن دون بهجـــة الروح وزهرة القلب عيوشْ؛ بادئاً الليلة في الملهى المقصف المشرب، و مُنهيَها بنوبة حراسة خاصة به لـــشُبُّاك الغرفة التي تنام فيها عيوشْ ، حيث يظل عند طاقة غرفته المطلة على المنزل المجاور حتى يأخذه الإجهاد فيُنيم طيف عيوش على مخدته القطنية الرخيَّة ويغفو بقربها.

هذا دأبه كل ليلة.

وعندما ازداد الحبر فغمر القلعة والناس: أولي العزم وعسس الحكومة والـــشرفـــاء؛ واســـتعدَّ اللـــصوص لأفعالهم، والنساء لزينتهن مع اقتراب العشاء وأوبة أصحاب الدكاكين - الذين يعتبربون أنفـــسهم تجـــاراً - مـــن محالهم. .إذَّاك انحدر عبد الباسط باتجاه صخب المدينة ليجد نفسه بعد انعطاف بسيط في إحدى الحـــواري أمـــام الدكان الكبير المعلقة على بابه لافتة خُطّت عليها عبـــارة: مقهى ومطعم وبـــار، وعلى سطر ثـــــان كُتبـــت كلمـــة " مختلـــط .." ولكي لا تُظن به الظنون إذا ما رآه أحد يدخل هذا المكان، جهَّز إجابة مقنعـــة بأنـــه إنمـــا يقصده ليتقهوى فحسب، معتمدا على ما كتب على اللافتة؛ فمن إذن، سيقول بأنـــه دخـــل ليتـــساقى المـــشاريب الروحية أو سوى ذلك من الممارسات الموبقة التي عَيَّـــره بها زميل دراسة في الصباح حين احتـــد نقاشهما:

ـــ إن واحداً مثلك لا يحلل ولا يُحرِّم، ليس من حـــقه أن يتصدى للحديث في هموم وإشكاليات الوطن؛ فتلك، تليق فقط بالأسوياء المتمسكين بدينهم وبأخلاقهم، لا بالفاسقين.

أحب عبد الباسط هذا المكان الدكان المقهى المطعم البار، كما لم يحبه في الماضي.. بلى لـــم يحبـــه علـــى الإطلاق في الماضي عندما كان " أبو جاسم " ـــ الحوذي أبو جاسم ـــ يتخذ منه، في آن معاً، سكناً لنفسه وكراجاً لعربته وإسطبلاً لبغلته التي يسميها بكل قِحَّـــة واجتراء: فرساً.. وفي كل مرة يؤم فيها عبد الباسط هـــذا المكـــان وما إن يُنهي كأسه الرابعة حتى يتوقع أن يسمع همهمة البغلة التي اعتاد سماعها عندما كان صغيراً تُخيفـــه أمـــه بها، فقد كان يُهيِّء له عقله - بل خياله الغضيض إذّاك - أن الجن هي التي تهمهم في الداخل لتجتذب وتعتصر كل من يعارض أو يتشاقى على أمه. لكنه حين بلغ من العمر سناً مكَّنته من إدراك حقيقة مصدر الصوت الليلي، كان وسواه من أقرانه ما إن يمروا بقرب باب المسكن الكراج الإسطبل،حتى يعاجلوه برفسة أو ضربة قبـــضة قويـــة

توجع الكف، لكنها تجعل البغلة في الداخل تجفل، فتصبح لهمهمتها همهمة أعلى يضحك لها الفتيان، أما الأصــغر عمراً فيقفزون لائذين بأعناق الأمهات أو هاجمين على جلابيبهن يتشبثون بأذيالها.

حين يتواعد عبد الباسط وعيوشْ على لقاء خارج الحي وخارج سطح منزلها، كان يطلب منهــا أن تــصعد الترام[1] المتجه للجميلية و أن تنزل في محطة باب الفرج حيث تكون لهفته بانتظارها ليصعدا معاً ترام النيــال. فهناك في الرمضانية يكونان ابتعدا عن العريان، حارتهما، مسافة مهمة، بحيث لا يريــان أحــداً يعرفانــه و لا يعرفهما فيه أحد. ولكن عبد الباسط وإحتفاءً منه بعيوشْ وحرصاً عليها.. رأى هذه المرة أن تنزل من الترام فــي محطة عَوْجَة الكيالي لأن المسافة بين محطة باب النصر وعوجة الكيالي أقصر من أن تلفت نظــر أحــد بــأن الراكبة المدججة بالسواد لم تصعد الحافلة من مسافة أطول .

عندما نزلت لم يمسك عبد الباسط يديها أو إحداهما؛ وهي لم ترفع البتّــة منديلها الأسود الكتيم، ولولا أنهــا اتجهت هي إليه، لما كان عرفها ولكان ظل وجيب قلبه يتعالى ولربما اجتاز صدره الشغوف فوصل إلى معــارج القمر. أما وقد سارت خلفه هو بالذات المسافة القصيرة التي تفصل بين خط الترام ومكان توقف عربة حنتــور فصعد وصعدت.. أدرك أنها عيوشْ .

العربة أنيقة، وأنيقة بغلتها أيضاً؛ أما الحوذي فرجل مُشَوْرَب، بل إن وجهه كله بدا لعيوشْ شاربين كثّـــين، والشاربان بَدَيَا لها كأنهما فمٌ يضحك دون أن يكون له وجه .

استقرت عيوشْ جلسةً واطمئناناً إلى جانب عبد الباسط الذي ما لبث أن مسَّد بيد الرِقَّة شاربيه الناعمين وقال:

ــ خشيتُ ألاَّ تحضري.

همست بصوت حنــان ودعوة؛ ما مثلــه صوت؛ وعينين تبرقان بينبوعين من الفيروز:

ــ وهل أقدِر؟!

تبسم عبد الباسط. وبأصابع كف رقيقة كماء الورد، قرص عيوشْ من خاصرتها اليسرى فتأوهت بــصمت. نظرت إليه بعينيْ الوله الأزغب وقد اتسعت فيهما الابتسامة فعبرت عبد الباسط إلى مجلس العربة والعربة كلها وصولاً إلى السائس ثم إلى البغلــة نفسها المزينة كعروس بالشقشقيق والريحان وما أحلى زمانه[2].

هوى " أبو اسكندر " بالسوط على جســد البغلة فرمحت .

لم تتمالك عيوشْ أن قالت :

ــ حرام عليك عمُّــو خَلِّهَا تَسِرْ كما تهوى.

فهم أبو اسكندر شيئاً فقال:

ــ عندما نصل أول شارع السبيل[3] سأتركها تسير على هواها، أما هنا في الزحام فنحن مضطرون للعجلة. أخاف أن يراكِ أحد. أخاف أن يراكما أحــد.

ثم زاد:

ــ وعندما نصله ستعرف البغلة وحدها إلى أين تأخذنا..

عيوشْ، رفعت المنديل الأسود عن وجه القمر اللين. سألت عبد الباسط عن خــدوش كثيرة اعتورت خديــه

ورقبته، فرَدَّ بأنها خمشات من صغرى أخواته، واحمرَّ لأنه كذب. .ثم تشاغل بالنظر إلى الدكاكين في الطريق. بل سرح في وسيلة تكفل له الرد المُلجم على خصومه السياسيين المنضوين تحت ألوية أحزاب وجماعات تعجزهم الحجج فينساقون إلى الحجة الأعظم. .حجة الأكف والقبضات صفعاً ولكماً، كما حدث في صبيحة هذا اليوم حين هدده أحد الطلبة بوعيد مابعده وعيد، فقد أقسم بلحيته وشاربه، وبلحى آبائه وأجداده، أن يجعل من عبد الباسط عبرة، وأن عليه منذ اليوم ألا يطمئن إلى جسده لأنه سيكون معجوناً كالكَباب الذي يبحث عن سيخ يُشوى عليه ولا يجد... لم يُعِرْ عبد الباسط التهديد بالاً، فهو المرتهن إلى قوة حجته وقوة حبه لعيوشْ. اكتفى بأن انسحب من المشاجرة لا عجزاً ولا خوفاً، بل لأن ميعاد عيوشْ قد أزِف.

ارتد توقاً إليها، قلباً ومشاعر. اغترف من بهائها وإشراقة عينيها الحلبيتين الصافيتين كموج أزرق يتماوج بفعل نسيم بحري أنيق وحنون، مما أشعره بأنه أقوى من أولئك المحاورين كَلِيْلِيْ الحجة والفهم. ثم أعقب بأن مال عليها قليلاً فكادت البنت أن تضمحل، وما لبث - وقد وجد عيوش تمعن في عينيه غير مصدقة ما قال عن سبب الخدوش - أن بحث في تفكيره ليصرفها عن الأمر .

سأل أبو اسكندر:

ـــ إحكِ لنا ياعم، ليش الشوارع في هذا الصايح[٤] ليست مثل صوايحنا. هناك الطرقات تضيق باثنين يمشيان متجانبين وهنا!..

أبو اسكندر أحس بأنه موضع استقراء لأمر لا يعرفه حتى طلاب في الجامعة. قال:

ـــ في صوايحنا الناس يمشون شبه متلاصقين فيزدادون إلفة وتحاباً، أما هنا فشأن المدنية المستوردة كلٌّ له مشربه، ثم إنهم بالمسطرة يا ولديَّ خطُّوا شارع السبيل، لا عَوجة ولا لفَّة، وقت أن انتهوا من بناء شركة الكهرباء. المستعمرون قسموا حلب بالمسطرة صليباً لعنهم الله، فالصليب براء منهم لأنه محبة وهم عدوان وجور واستعباد.

ـــ صحَّ لسانك يا أبو اسكندر .

ـــ وكذلك قسمتها شركة الكهرباء مناطق مناطق؛ منها من كان مَرضِيَّاً عنه فحظي بالكهرباء كالعزيزية والجديدة والسليمانية، وفيما بعد بعض منطقة خان الوزير وما احتضنها كوراء الجامع وقاضي الحاجات، بينما ظلت أحياء مثل العقبة والبندرتين والكلاسة والمشارقة من دون كهرباء. كما أن الأسلاك مُدت إلى السراي قرب القلعة دون جنينة الفريق وساحة بزة وباب الأحمر وجب القبة وباب الحديد والأوظلية والمشاطية وتراب الغرباء وباب النصر؛ أيضاً أُضيء خان الشربجي وخان سالم في باب انطاكية خدمة لسجن هناك ومعسكر فيه لقوة الانتداب.

كانت عيوشْ قد خططت حاجبيها بفم الطاسة المكاوية وخططت شفتها العليا بكعب الطاسة نفسها، لتبدو أصغر، أما الشفة السفلى فتركتها على استرخائها حرة. .فقد سبق أن قالت لها الخيَّاطة (إيفون) بأن الرجال - والشباب بالذات - يُسرُّون إذا تلهَوْا بالشفة السفلى بين شفاههم و عضَّضوها بأسنانهم..

لم تكن عيوشْ ولا الزمان إذَّاك قد تعرَّف بعدُ إلى دور الشفة العليا في التعاطي بين الأحبَّة ولا إلى دور

اللسان؛ ربما لأن الخجل النسوي كان صفة محببة أو لأنه كان وحده الدليل على عذرية العذراء، وأيـضاً علـى كونها واحدة زوجها؛ وأيضاً - بل فوق ذلك - لأنه لم يكن لها أصلاً أن تُبديَ أيَّ هوىً أو تشبب أو اشتراك فـي ما يُمارَس بها فهي قِنْيَـةُ الرجل ومجال تَمَتُّعـه فحسب؛ وهذا أيضاً سمعته من إيفون. إن عيوشْ أتقنت فهم كل ذلك فاكتفت بالالتحام بعبد الباسط كلما قال أبو اسكندر (حاح).. أما عبد الباسط فكان يبتسم كلما فعلت محتجَّـة بأنها تخاف من قرقعة السوط.

أراد أبو اسكندر عندما أشرفوا على السبيل، أن يتوقف لينُزل الراكبين لكن عبد الباسط سأله:

ــ كم تكلفنا العودة يا عم ؟

قال أبو اسكندر:

ــ الذهاب لم يكلف شيئاً فماذا يكلف الرجوع ؟

صمت عبد الباسط فانعطف أبو اسكندر ليعود بالحِبَّين إلى حيث أتى بهما. حدقت عيوشْ فـي ظهـر أبـو اسكندر وقـالت :

ــ يا عمي هذا باب رزقك .

عاجل أبو اسكندر:

ــ الرزق على الله يا بنتي .

عبد الباسط قال:

ــ صحيح. هذا مذكور في القرآن الكريم

التفت أبو اسكندر قليلاً ثم قال:

ــ وهو كذلك في تعاليم المقدّس يوحنـا الرسول.

رد عبد الباسط:

ــ نعم، لكنْ ليس هناك ما يبرر أن يربح أحد على حساب أحد ولا أن يخسر أحد من أجل أحد، فهذا ما قالتـه الشرائع ونحن درسناه في الجامعة يا عمي يا أبو اسكندر، في القانون المدني اسمه: إثراء غير مشروع .

أبو اسكندر لم يقل شيئاً البتة. سكت.

عيوشْ ازدادت التصاقا بعبد الباسط وطوقت خصره معجبة به و فخورة. .أما البغلة فحجلـت، لكـن كمـن ترقص.

عيوشْ قالت :

ــ أرجوك لا تخبرْ أحداً عنا.

تبسَّم أبو اسكندر بينما كان ينظر إلى كِفليْ بغلته. لكنه قال:

ــ سأدعك على هواك.

وفي باله أنه يقول لعيوش : سأدعك على هواك .

وإذ بدأت البغلة تمضي رخيَّةً راقصةً باتجاه ما بعد السبيل، مدَّ عبد الباسط ذراعه فلفَّ عيوشْ وهمَّ أن يختطف قبلة من الفم الشهي كفَلْقَةِ فستقةٍ حلبية لم تكتمل تفتحاً، لكنها انفكت عنه بأن سحبت ذراعها من خصره ممعنة النظر في عينيه؛ ولكنْ دون أن تبتعد قيد شعرة عن الالتصاق بجسمه. ثم أسلست له الخد المتورد كرغيف خرج لتوه من محرق فرن.

هزمت عبد الباسط بأن سألت أبو اسكندر مرة أخرى:

ــ ألن تُخبر أحداً عنا يا عمي ؟

عبد الباسط قال :

ــ عيب يا روحي، أبو اسكندر شيخ الشباب أباً عن جدّ، هو من الحميدية وأهل الحميدية يا نور عيوني كلهم رجال مثل أبو جبرا أطُّوش[٥] ، رجال، والله العظيم رجال. أيضاً لا تنسي فهو ابن جارنا أبو جاسم عليه رحمة الله .

في سره، تساءل عبد الباسط فيما إذا كان مزدوج الشخصية أو مثلَّثها أو مربَّعها.. إذ كيف يتسنى له أن ينعم النعيم كله بمجرد أن يجالس عيوشْ خلسة عن أهلها دون رابطة معلنة كالخطوبة مثلاً، أو حتى أن يمر من تحت شباك غرفتها. .في الوقت الذي يعاقر فيه كل ليلة خمرة المقهى المشرب المطعم مع جليسة من بلاد النيل أو الإفرنجة.. بعد يوم طويل يكون قد حفل بالمحاضرات وبالمماحكات العديدة مع الطلبة في أمور الأخلاق والدين والدنيا والوسائل الكفيلة، في رأي كل فريق، للوصول بالوطن إلى بر من الحرية والعدل المفتقد، موقناً بأنه والوطن متلازمان وبأنه يكاد أن يكون زعيماً سياسياً من طراز وطني فريد.. وكيف يعاجل كل صباح إلى استكمال أناقة شبه مفرطة ويغادر إلى الجامعة، فيمازح تلك من الزميلات ويغازل أخرى، ويتجرأ في كثير من الأحيان فيدعو إحدى الطالبات ليُسمعها شعراً كتبه فيها وإليها، كما يدعي.. كيف يتسنى لشخص واحد أن يحمل كل هذه الشخصيات ويبقى أحاديَّ الشخصية. بل يبقى جديراً بقيادة نضال ما ومن أي نوع كان.

فيما الحبيبان يزداد كل منهما اقتراباً من الآخر يود أحدهما أن يولج نفسه في الثاني. .بَهَرَ الجميع وقوف حصان شَبَّ أمام البغلة والعربة فارتعدت البغلة لكنها لم ترمح كعادة البغال إذا هوجمت؛ بل تسمرت كأن الأرض أمسكت بها .صعد الدم الغاضب إلى وجه أبو اسكندر وانتفخت رقبته فاحمرَّت، بل واحمرَّ كلُّه، وصاح براكب الحصان صيحة أجفلت البغلة:

ــ ما الذي تفعله يا ولد.

ــ لا نريد سوى هذا الزنديق الذي معك.

وقف عبد الباسط يستطلع ما الذي يحدث ومَنْ المعنيُّ بكلمة الزنديق، إلا أن يدين قويتين أمسكتا برجليه تسحبانه خارج العربة المتوقفة؛ فلم ينكب على الأرضية بل على عيوشْ التي جعلت تولول وتولول وتشده إليها وكأنها وجدتها مناسبة لتتشبث بالحبيب من تحت إبطيه وتدلق على رأسه ووجهه قريباً من الفم تفاحتي صدرها

الثري فتكاد بين الفزع والجزع واللهفة المتقدة، أن تسقط كلها في قبضة الموقف الذي سقط فيه قلبهـا وحبيبهـا. وفي عجالة هبط أبو اسكندر بقامته المديدة كمئذنة صلدة، واندفع بكل قواه نحو راكب الحـصان الـذي عاجلـه بعصىً غليظة كانت في يده، فما خرَّ وما أحس بألم، بل ارتد إلى عبد الباسط والمغير عليه في التحام حـام .لـم يكترث للدم الذي غطى وجه عبد الباسط جراء سقطته القاسية علـى الأرض خـارج العربـة، ولا لـضربات العصى التي لاحقته. كان همُّه الأوحد أن يقتص من المغير وأن يخلص الشاب الذي أدمتـه المفاجـأة العاجلـة والانكباب على التراب. وحين بدا أن المعمعة ستستمر صاح أبو اسكندر بعيوشْ:

ـ تحت مقعدي سكين خذيها يا بنت، واهربي بالعربة. استري نفسك.

عيوشْ لم تهرب. قطَّعت رباطات البغلة وامتطتها وكرَّت على راكب الحصان بكل عنـاد البغـال فهـرب بحصانه ثم ارتدَّت إلى المتصارعيْن، وكأن البغلـة وقد رأت المشهد أدركت أن أبو اسكندر في ضيق، فما كان منها إلا أن مالت بشيء من الحنان فرمت الصبية لينكشف منها فخذان أبيضان كالفـل المتفـتح، ثـم همهمـت همهمة تصـدَّع لها قلب عيوشْ وشارع السبيل وبيانات الأحزاب والقواميس جميعاً، وعَلَتْ ثم هَوَت بكل قوتهـا على المهاجم نزلة واحدة، فإذا هو ممدد لا حراك لـه إلا أنه مطوَّح اليـدين ويتنفس بكثير من المشقة. ولم تهدأ البغلة إلا حين نهض أبو اسكندر وأنهض عبد الباسط فاستدارت إلى أمام العربة تدعو الحوذي أن يعيـد ربطهـا إلى قدرها وأن يضع على عينيها الواقيتين الصغيرتين اللتين لا تسمحان لها بالرؤية إلا إلى أمام .

الحواشي

(١) الترام، قطار كهربائي يسير بين شوارع المدن وكان موجوداً في حلب ودمشق وبيروت .

(٢) ما أحلى زمانه: زهر نرجسي ربيعي طيب المنظر والرائحة.

(٣) السبيل منتزه أحدث منذ أوائل القرن الماضي شمالي حلب. واليوم غدا في وسطها تقريباً.

(٤) الصايح: الحي حسب لهجة أهل حلب. وقد ورد في كتب الباحثين «الأسدي وغيره» أن التسمية أتت من أن الباعة في تلك الأحياء يصيحون على بضاعتهم .

(٥) واحد من زعماء الأحياء كان له دور هام في الحركة الوطنية إبان حكم الانتداب على سورية.

(* *) الجميلية، باب الفرج، العريان، باب النصر، عوجة الكيالي، الرمضانية، العزيزية، الجديدة، الـسليمانية، خان الوزير، وراء الجامع، قاضي الحاجات، العقبة، البندرتان، الكلاسة، المشارقة، جنينة الفريق، سـاحة بزه، باب الأحمر، جب القبة، باب الحديد، الأوظلية، المشاطية، تراب الغرباء، باب انطاكية: من أحيـاء وشوارع حلب.

بينما كانت الصالة تعج بالحالمين، وبالموسيقى، وبالمتناجين والمتناجيات: أمام اللوحات وداخل اللوحات نفسها، وفيما بين كل لوحة وأخرى.. خرج الفنان من الصالة إلى فسحة من الهواء.. غمر نفسه فيه، وفي عقله تتردد معاني الإعجاب التي عبَّر عنها الزائرون، وعلى الأخص ما قالته السيدة الأجنبية. أما الأنوار فقد كانت تنسكب حَيِيَّة وأليفة.

سَرَّ الفنان بما قيل له من أن قاموسَهُ اللوني قد تهذَّب، وبأنه قد أصبحت له هوية وسمة فانفكَّ فكَّاه. بانت أسنانه الصفْر قبل أن يحشر غليونه بين شفتيه السميكتين الرخوتين كشفتيْ كبْشٍ أسنٍّ. سمع نفسه تكلم نفسه. كان شريط الذكريات قد انتظم أفكاره وحواسه وقلبه. فالسيدة عندما همست له بأن اللوحات دفَّأت كتفيها وصدرها وصُلبها، قدَّر أنها إنما أرادت أن يفهم بأن قد أوشكت أن ترتعش انتشاءً..

كانت مهذبةً كحمامة أفلتت من نواحها؛ لذلك أومأ إليها بنظرة إلى باب حجرة في عمق الصالة حيث اختص نفسه دون الصالة، ودون الخارج كله.. ثم أتبع النظرة بتحويل بادٍ من إحدى مقلتيه؛ فلم تعد السيدة بين حشد الزائرين، كما أن أحداً لم يفتقدها، غير أن نسيماً من الطيب مرَّ واختفى .

غابت السيدة عن الحشد. كأنها عطر تسرب لتوِّه من حُقٍّ بابلي أو من زهرة كبَّاد في بيت حلبيٍّ.. فحمل الفنان توهجه الخاص وشريط ذكرياته وتمهَّل وهو يخطو باتجاه ما وراء الباب.

وللحقيقة فإن ما كان يجري في هذه الحجرة بين الفنان وبين زائراته كان من الأمور بالغة الكثافة، إلا أنه لم يكن مما يهتم له المتواجدون في الصالة، عندما يتواجدون، بل إن الجميع كان على شبه اتفاق، فيما يعلنون، من أن ما يتم في الحجرة ليس أبعد من مفاهمات ومناقشات حول الفن والفنانين ومشاربه ومشاربهم ؛ على أن الهمهمات والشهقات، وأحياناً صيحات الرضا والاستحسان التي يعقبها تعرُّق ثم هجود.. كانت تُسمع وتكاد تُشاهدها البصائر في الخارج ؛ وكل من يكون بالصالة إبَّان ذلك كان يتمنى لو كان هو الذي في الداخل ؛ فاعلاً أو متفرجاً، فالاستمتاع يتحقق في الحالين.

في الحجرة المنعزلة،لم يكن ثمة ضوء على الأريكة ذات السطح الأملس كخدّ رضيعٍ، إلا ما تضيئه الذات الحالمة والمشاعر المتماسكة والمتلامسة في دعة وحنوّ.

كانت الأريكة تستجيب كليَّة في عطاء فذٍّ كلما اتُكِئ عليها أو جُلس، إلا أنها الآن تتأبَّى.. ربما لأن الفنان ما زال في نشوة هويته وسمته اللتين تأكد من امتلاكهما بناءً على ما قيل له، وبالذات من قِبل المرأة الأجنبية التي تبسم له الآن وتدغدغ الأريكة أعلى ساقيها، وربما لأنه لم يكن هو الذي تمدد أولاً، فالسيدة هي التي

فعلت وضغطت على يده اليمنى فسحبها، آنئــذٍ أنَّ غطاء الأريكة وتلوَّى. وعندما تقلَّبت السيدة على الفنان إلى يده اليسرى وأسرَّت فوق جسده كلمات وتنهدات. .ظل ممـــدداً. ولم يبتسم إلا حين أجرت بلسانها تنهيـــدة رقيقة على آخر فقرة من فقرات رقبته.. لكنه ظل ممدداً، فنهضت. أضاءت الحجرة. جعلت تتمهل في ارتداء الثيـــاب. لم يكن يراها بتاتاً. كان مملوءاً بالاستغراب من أن فَقَـــرَةً في رقبته ضحكت لمجرد ملامسة من لسان طري.

لم تتمالك السيدة نفسها من اختلاس نظرة إلى الأريكة وهي ترتدي ملابسها الساترة. شـــدَّتْ بـــاب الحجـــرة فدخل الضوء برهة هنيهة من الصالة ثم ما لبث أن انكفأ فعاد.

عبرت روحَهُ اشتياقات شجية نحو ألوان غير الألوان. فأن تحظى لوحاته بالتقبُّل أو بالإطراء أو بالإعجاب.. هي أمور كان يتمناها على الدوام، ثم إن هذه ليست المرة الأولى التي يتمدد فيها على الأريكة وتتوســد جـــسدَهُ امرأةٌ مُعجبَة. أما أن تضحك خلف رقبته فقرة من الفقرات وأن تصف سيدة أجنبية فنَّـــه بأنه قد صارت لـــه سمة وبأنه نفسه صار سمةٌ خاصة في الفن الوطني.. فذلك أمرٌ جلل وجديد الجدة كلها، لأنه كان قد اتُّهــم واتُّهمـــت لوحاته بالزندقة ؛ حبذا لو أن الاتهام لم يتعدَّ الزندقة ؛ لكن البعض بلغ به الشطط والجرأة بل القِحَّة مبلغاً لم يُبلَـــغْ قـــط، إذ مال الحديث بذلك البعض فجعل اللوحاتِ الكفرَ بعينه وليس الزندقة فحسب. فهل هو كافر حقاً !..

هكذا تراوح بين: الشك بقلبه وبروحه وبفنه. .وبين اليقين .

حقـــاً، لماذا تُرسم الكائنات والأشياء باللوحات على غير مقاساتها كما نراها في الحقيقة؛ مثلاً الثـــور فـــي مؤخرة لوحة لماذا هو أصغر من شاة في مقدمتها؟ أليس هذا تحويراً في الحجوم والمقاسات يُغاير كليَّـــة خلقـــة الرب ومكنونات جواهرها المقدَّرة تقديراً حكيماً؟.. إذا كانت تلك قواعد المنظور، فالمنظور في الرسم أُخذ عـــن الغرب، والغرب كافر. .فلماذا نأخذ عن كافر فنرسم عصفوراً بحجم بطـــة وخلفه بالبعيد بطـــة طـــائرة بحجـــم عصفور وأحياناً بحجم نملة ؟ ناقل الكفر ليس بكافر، لكن المقتدي بالكفر كافر حقاً وحتماً..

هكذا كانت تعتوره الوسائس، وهكذا كان ينوس بين فنـــه وبين نظرة الناس إلى الفن كله.

في الخارج شدا قُمري بصوت رطب، فانتفض الفنان وكَفَّ عن مسايرة تأملاته وأفكاره. ربما ارتعش وهو يستحم في الصوت الرطب ..

وإذ ماءت قطَّـــة أنْصَتَ الفنان. لم يكن المواء كالمواء. كان فيه زُهُــــوٌّ واحتـــشادٌ بـــشيءٍ مـــا، شـــيءٍ كالأزاهير الصيفية بينما الوقت ربيع..

طاول الفنان جسده ثم مـــدّه. فإذا قـــطٌّ يختال في اتئاد لعله يظن نفسه وَعْلاً شبع لتوه مـــن شـــجرة شـــوك خضراء وسمراء في آن معاً على الثلج العميم ؛ أما القطة فكانت، كالمكر، تتلفَّت فيها عينان: عين مـــن زبرجـــد وعين من فيروز، وتُخرج لساناً تتلمظ به لحظة ثم تعيده إلى داخل فمها. لم تكن تهتم للعـــصفور الواقـــف علـــى مبعدة قريبة منها ولا لتحوّلات رأسه المتلاحقة.. ربما كان يستهزئ بها.. هكذا قال الفنان. وتـــابع فـــي ســـره: ولكن منذ متى كان للعصافير أن تستهزئ بالقطط.. سبحان مُغيُّـــر الأحوال، هل صرنا إلى زمان غير الزمـــان وأحوال غير الأحوال؟ وإذا كنا قد صرنا، فلماذا لا نرسم اللوحات حسب ما نراها بالمنظور، وإذا مـــا رأيناهـــا

بالموشور لماذا لا نرسمها بالموشور أيضاً؟..

تنبَّــه إلى أن القطة التي كالمكر لابد أن قضت وَطَــراً من القط المختال..

عاد الفنان إلى استلقائه ليجد الظلمة تحتوي روحه وقلبــه. أحسَّ باتقاد يعتور كل جــسده. خلــع قميــصه وأرخى بنطاله. استوى واقفاً.. لم يكن معتــاداً على ارتداء السراويل.. حدَّقت به المرآة. جعلت يــدَهُ اليمنى يداً يسرى، وكذلك بادلت الساقين، فابتسم .لم يشعر بخجل، ولا بتأسٍّ أو ابتهاج. وجد نفسه يبتسم فحسب، ولا يعرف لماذا .. ربما لأنه تذكَّر أن له في رقبته فقرة تستطيع أن تبتسم.. أو لأنه تذكَّر ما كتبه النقاد عن معرض اللوحات الذي أقامه في البلد البعيد من أنها كرسوم المايا، تفتقر إلى معايير الرسم الفني المعتادة، أو ربما لأنه تذكر بــأن امرأة لها ملامح السيدة الأجنبية نفسها اقتنت إحدى لوحاته وما كادت تخرج بها حتى جعلتها فــي أول حاويــــة قمامــة صادفتها. يومها ودَّ لو تمكَّن من اللحاق بالمرأة، لكان صفعها أو بصق عليها.. أو كان قبَّلهــا. لكنه وقد فَقَــدَ المــرأة، وقف عند الحاوية، ثم اعتلاها، فتأمل لوحته وبَــال عليها .

أزَّ الباب وانفتح. عادت السيدة .لم يتسرب إلى الحجرة نور كثير لأن السيدة حالت دون النور ودون الجــسد العاري في الظلمة، لكن المرآة هي التي كانت تضيء بضوء خجول، لكنه شَــبِق. السيدة نظرت في عيني الفنان غير عابئة بما يتذكَّر، كانت عيناه تريان ولا تريان. أسدلت كفيها إلى جانب مــن خــصرها فمــــال الخــصر واشرأبَّ بتوقٌ داهم للمعاصي الأثيرة، صار خصرها جواداً يكاد يُفلت نحو براري الانعتــاق الآهلة بــالقرابين المرتجــاة عند مذابــح الغفران. كشــفت لــه بأنها هي التي كانت قد اشترت اللوحة وأودعتها حاويــة القمامة فقد كانت اللوحة بدائية المقاييس بدائية النظرة، رغم ما كان لها من سحر الشرق و براءة البراءة بألوانها الشفافة فائقة الابتكار إلا أنها قد أفلتت من مفهوم ابن الهيثم. كان فيها في العمق صبية مستلقية وهي بحجم زرافــة أمــا الزرافة في المقدمة فهي بحجم الصبية والأشجار التي تصد الريح عن الصبية وعن الزرافة، فجميعها متــساوية كأنها خرجت لتوها من قالب واحد.

فجأة نصبت السيدة كفُّها وبأقصى ما تملك من القوة والشراسة أهوت على خده. .كادت الكف أن تنطبع فــي الخدِّ لكنها أدخلت الفنان بين دفاتر ابن الهيثم(*) ومصنفاته. فاشتمَّ روائح الغفران من غبار القرون. .لم يُبْــدِ تألماً ولا استغراباً. تلاطمت داخله مشاعر متباينة ومتَّسقة تجلَّت بقهقهة مدوية مجلجلةٌ راعــدةٌ أوشــكت أن تبــدده والسيدة والأريكة والحجرة والصالة بل والأرصفة المجاورة وحواري المدينة كلها.

تقبَّل الصفعة رضيَّاً رضىً كبيراً.

أحس بأنه قد صار لبلاباً على جدار مائع من نور لامع وقاس، يتراســم على قلــوب من العشق الــدافئ لا شرقية ولا غربية تكاد تضيء وهجاً بنور المعرفة المبتغــاة. .فقد عاد له اطمئنانه، وآب من منزلق الزندقــــة والكفر.. رأى أن سنابل صيفية مشتهاة قد أصبحت ملك يمينــه. غمغم: أين كنت عني يا عمِّي يــا ابــن الهيــثم وأنت مكتشف المنظور فحين نأخذ عنك، نأخذ من تراث لنا لا كفر فيه ولا زندقة ؟.. يا أيها الماجــد الآتــي بالمغفرة من القرون التليدة إلى القرون الآنيَّــة الجائرة، وإلى المستقبليَّة أيضاً.

وما إن كَنَّ واستكنَّ،حتى عادت السيدة لمهاراتها فتقدمت منه. تغنَّجت. مسَّه جسدها. كفكفت له الدموع المنثالــة

من مسامِّه كلها. اقشعرَّ برداً واستشعرت هي دفئاً مُتَّقــداً.. ظلا متلاصقين. لاهو تحرَّك ولا هي تفرَّعت. إنتصبت بينهما اللوحة، فأفســح لها كل منهما، حيِّــزاً كي تمضي وحدها إلى خارج الحجرة وخارج اللحظة وإلى خارج الفن الذي كانت قد خرجت منه منذ بال عليها .

تناول الفنان أحدى كفَّي السيدة فغمر بها وجهه ثم مسَّدها بشفتين من ذهول مضيء،حتى كادت الكـــــف أن تضمحلَّ، فرجع بلسانه إلى نظرية ابن الهيثم. أشبعها لثمـــاً فاتسعت.. صارت جداراً من الأحاسيس والـــذكريات الممضَّة والممعنة في خصوصيتها كأنها إبريق من البللور المُصفَّى يطوف به وِلْــدان وحِسانٌ مخلوقـــون مـــن ورق الورد وعروق الريحان..

أطلقت السيدة في رقبة الفنان وفي ظهره فقرات ضاحكات حتى سُـــرَّ، فابتسم، فضحك، فقهقه. أصعد يمينَهُ على المدارجِ والمنعطفاتِ والمنحدراتِ في روح السيدة وجسدها.. وكذلك فعلت يساره. فأغفت السيدة مستكينة.. صارت زيتونـــة في معصـــرة.

كان ابن الهيثم شاهداً ورحىً لها، وللفنان.

(*) إبن الهيثم: أبو علي الحسن ابن الهيثم المتوفى عام ١٠٣٩ ترك ٢٠٠ مصنف في الرياضيـــات والبصريات وهو أول من قال بكيفية حدوث الرؤية حسبما نعرفها الآن مبطلاً النظرية اليونانية القائلة بأنها تحصل مـــن انبعاث شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي. وهو أول من عرض المفهوم الرياضي عـــن المنظـــور وذلك في مصنفه " كتاب المناظر "

تضيء قصص المجموعة مساحة مهمة من الواقع المعاش في الحواري والبيوت المغلقة على نسائها، يتناول شفيف وأداء لغوي بالغ الرقة والدلال يشتغل بشاعرية موحية على الكلمة الواحدة والجملة الواحدة والسطر الواحد والقصة الواحدة، حيث تعتنق العبارة بالمضمــون اعتناقاً لا فكاك منه فتنضح اللغة بالفكــرة والأمثولة في نأي بالحدث المروي عن الخطابية والأستذة ليغدو القارئ حيال نص رفيع المحتوى والصياغة نتج عن مزج كيميائي أجراه الكاتب بين الكلمة وإشعاعها الجمالي الزمان والمكاني وبين الحدث نفسه في موقعه المحدد والمطلق في آن معاً وبين المعنى الدِلالي له . وبهذا ف «أصل الغرام نظرة» وثيقة رفيعة المستوى مُصاغة بصدق حياتي جمٍ للواقع المحلي بخاصة تجربة النساء اللائي ينزعن نحو كينونة أكثر إنسانية مقابل إسهام عوامل تجذبهن إلى قيعان ممضّة من السلطوية الذكورية المقيتى .. والقصص في مجملها إسهام جاد في جمالية القص السوري المعاصر من خلال بوح أدبي حزين ولكنه صارم ومنحاز للفن في آن معاً .

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٥٥ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ١١٠ ل.س